نفخة البعث

شواهد الحياة بعد الموت

محمد فتح الله كولن

نفخة البعث

شواهد الحياة بعد البعث

Copyright©2015 Dar al-Nile

الطبعة الأولى

رقم الإيداع

2015/23923

الترقيم الدولي

ISBN: 978-977-801-006-0

رقم النشر

1036

دار النيل للطباعة والنشر

الإدارة: 22 حـ- جنوب الأكاديمية- التسعين الشمالي - التجمع الخامس- القاهرة الجديدة - مصر

Tel & Fax:002 02 25379391

Mobile: 002 01023201002

E-mail: info@daralnile.com

www.daralnile.com

نفخة البعث

شواهد الحياة بعد الموت

تأليف

محمد فتح الله كولن

ترجمة

نور الدين صواش

بسم الله الرحمن الرحيم

فِهْرِس

تقديم ٧

فاعلية البعد الأخروي في حياة الإنسان ١١

بَلْسم الأطفال ١٣

أنيس الشيوخ ١٤

حِمى الشباب ١٦

رفيق المرضى والمظلومين والمنكوبين ١٩

أحلام المدينة الفاضلة ٢٢

القرآن الكريم وحقيقة البعث والنشور ٢٧

حكمة تحيط بالكون ٣٩

الكريم الرحيم وضرورة الآخرة ٤٩

شفقة شاملة تشير إلى الآخرة ٥١

عزة وجلال يقتضيان الآخرة ٥٥

سخاء يشير إلى الآخرة ٥٧

جمالٌ فانٍ يستدعي جمالًا باقيًا ٦١

التناغم البديع في الوجود ٦٣

الحفيظية العجيبة ٦٧

القدرة الخارقة تقتضي الآخرة ٧١

دورة الموت والحياة ٧٥

عناية كبيرة لأصغر الكائنات ٨١

أدلة.. وأدلة.. وأدلة ٨٣

التاريخ والفلسفة يقرّان بعقيدة البعث ٩١

الكتب السماوية وعقيدة البعث ١٠١

البعث روحًا وجسدًا ١٠٥

مصادر ١٠٩

تقديم

لا يكاد قارئ هذا الكتاب يتخطّى سطوره الأولى؛ حتى يفاجأ بأنه قد دخل عالمًا مَوَّاجًا بالإشراقات الفكرية والروحية، وبأنه صار قبالة مفاهيم عالية وعميقة عن معاني الموت والحياة، والوجود والعدم.

فالأستاذ فتح الله كولن، يرى أن "الحياة" هي أصل الخلق والوجود، لأن خالق الحياة -وهو الله الحي القيوم- جعل من بعض تجليات اسمه "الحي القيوم" تلامس كل حي في هذا الوجود.. ويرى كذلك أن "الموت" الذي يخافه الناس ويرتعبون منه؛ ما هو إلا أمر عارض ليس له الغلبة، بل الغلبة والسبق دائمًا للحياة.. فما "الموت" إلا لون آخر من ألوان "الحياة"، ولكنه حياة صامتة لا تلبث حتى تعود لتستأنف حياة أخرى جديدة، كما تقوم الشجرة المورقة من البذرة المطمورة في التراب.. وما القبور التي يهجع بها الموتى، إلا حاضنات للحياة الصامتة التي سيأتي ذلك اليوم الذي تنهض فيه من جديد، وتجأر بالحمد والشكر لخالقها

الذي ابتعثها من مرقدها، لتستكمل ما لم تستطع استكماله من معارف أسمائه تعالى الجليلة والجميلة في الحياة الدنيا.. ولترى مآلات ما كانت تجيش بها أرواحها من الأشواق والمواجيد والآمال والأحلام فلا يسعها الزمن الدنيوي القاصر والمحدود، فلا بد إذًا من حياة أخرى أعظم سعةً وأشدّ استشفافًا لما كان يضطرم في أعماق النفس والروح من استشرافات للأبد، وتوق إلى البقاء والخلود.

فالحياة الأخروية، أو الحياة الأبدية، أو البقاء الأبدي، لم يأتِ من فراغ أو من وهم وخيال، فلو لم يوجد هذا البقاء الأبدي، لما وَجَدَ الإنسان توقًا في نفسه إليه.. فكما لو لم يشعر الطفل الرضيع -فطرةً- بأن الحليب الذي يغذيه موجود فعلًا في ثديي أمه؛ لما تاق إلى صدرها والتصق به، وآنس الرحمة والشفقة في صدرها الحنون.

ولا يَظُنّنّ أحد أن الحياة الأبدية والبقاء الأبدي يورث الإنسان السأم والملل كما يورثه الزمان الدنيوي الذي جعل أحدَ شعراء الجاهلية يقول معبرًا عن هذا الملل والسأم:

سئمتُ تكاليف الحياة ومَن يَعِشْ ثمانين حولًا -لا أبا لكَ- يَسْأمِ

فالحياة الأبدية لا تسير على وتيرة واحدة أو لون وشكل واحد، بل هي حياة متجددة مع اللحظات واللمحات.. فهي غيرها في لحظة من لحظاتها عمّا سبقتها من لحظات.. وهي غيرها مع اللحظات الآتيات.. وهذا التجديد للحظات واللمحات، هو تجديد كذلك لحياة الإنسان.. فهو في صيرورة دائمة من حال إلى حال لا تتوقف أبدًا، وفي ترقٍّ مستمرّ في سلّم البقاء من الأدنى إلى الأعلى.. فهو -أي الإنسان- في كل لحظة،

غيره في اللحظة السابقة، وغيره في اللاحقة.. ولعل الحديث النبوي الشريف: "**إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ**"[1] يشير إلى هذا المعنى؛ فهو ﷺ في تجدد مستمر في ترقّياته الروحية -كما يقول علماؤنا- فهو يستغفر الله تعالى من ترقيه الأدنى، ويحمده إذا جاوزه للأعلى.. فمن أين يأتي السأم والملل للإنسان في حياته الباقية وهو في تجدد مستمر لا يتوقف لمحة واحدة؟ وكيف يسأم ويملّ وهو في حالة هيام وذهول بالتجليات الجلالية والجمالية التي تشكل لوحات متتالية، كل لوحة أجمل من الأخرى وأشد إبهارًا.

ولا بد من التنويه بأن أصول هذا الكتاب كانت عبارة عن خطابات ومواعظ ودروس كان يلقيها فضيلة الأستاذ فتح الله كولن من على كرسي الوعظ في مسجد "بُورْنُوَا" المركزي في مدينة إزمير ما بين ١١ أكتوبر/تشرين الأول (١٩٧٧م) وحتى ١٧ فبراير/شباط (١٩٧٨م) من القرن الماضي، وهي مكرسة كلها لإثبات وجود الحشر والنشر، والحياة والآخرة، ولا سيما لجيل الشباب الجديد من المتعلمين أو أنصاف المتعلمين.

فهذا الكتاب من ألِفه إلى يائه يعالج القضية المضنية التي أعيت الأجيال، وشغلت العقول والأفهام، ألا وهي قضية معنى الحياة وغاية الوجود، وقضيّة "الموت" وما بعده، ويُجِيب عما يؤرّق الشباب خاصّة ويرهقهم من أسئلة عن الخلود والبقاء والأبد والأبدية التي بشّر بها مئاتُ الألوف من الأنبياء والرسل وكتبهم ورسالاتهم، والمئاتُ من الفلاسفة والحكماء وأصحاب البصر والبصيرة. ويقدّم في الوقت ذاته الغذاء للذين

(١) **صحيح مسلم**، الذكر والدعاء، ٤١؛ **سنن أبي داود**، الصلاة، ٣٧٢.

يعضهم جوعهم الروحي وعطشهم الوجداني، إنها ليست قضية فرد أو أفراد، أو شعب أو شعوب، بل هي قضية الجنس البشري بأجمعه، وقضية الحضارات التي قامت واندثرت، والحضارات القائمة والتي ستندثر يومًا ما، إنها قضية الإيمان التي نأت عنها الأجيال، وخاصمتها بعض الجماعات..

إني لأحسب أن هذا الكتاب يفيد في انتشال الكثير ممن ابتلعتهم هاوية مجافاة الدين والإيمان من الذين يعانون الخواء الفكري والروحي.

أديب إبراهيم الدباغ
١ أكتوبر/تشرين الأول (٢٠١٥م)
إسطنبول / تركيا

فاعلية البعد الأخروي في حياة الإنسان

إن تنظيم حياة البشر وتأمين سعادتهم، وثيق الصلة -بعد الإيمان بالله- بالإيمان بالحياة بعد الموت أو ما نسميه بالبعث والنشور، ولن تستقيم حياة الإنسان، ما لم يؤمن بأنه محاسَب على كل فعل من أفعاله، تصوروا رجلًا مؤمنًا لا يغيب عن باله -ولو للحظة- أنه سيُسأل في الآخرة عن كل خطوة خطاها في دار الدنيا.. كيف يكون سلوكه يا ترى؟ يكون ثمرة محاسبة متأنية لا محالة، يراقب كل كلمة تخرج من فيه، ويتتبع كل صوت يقتحم أذنه، ويترصد كل رغبة تختلج في صدره، يزنها بميزان دقيق ويضبطها ضبطًا محكمًا؛ وبالتالي تستقيم حياته وتستمر بتناغم وانتظام.

يقول تعالى: ﴿**وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ**﴾ (سورة يُونُس: ٦١/١٠)؛ أيْ تسجّل كل أعمال الإنسان -صغيرها وكبيرها، خفيّها وظاهرها- من قِبَل ملائكة مُكرمين.. خفيفةً كانت تلك الأعمال في نظَرِنا عظيمةً في ميزان الله، أو عظيمةً كانت في نظَرِنا خفيفةً في ميزان الله.. كل تصرفاتنا تسجّل.. القائمون بهذه المهمة الخطيرة يقفون لنا بالمرصاد، يتابعون أعمالنا ويسجّلونها، ثم يأتي المَلِكُ الدَّيَّانُ الذي يعلم السر وأخفى يحاسب عليها.

إن حياة يسودها شعور كهذا مستقيمةٌ، ومجتمعًا امتلأت نفوس أبنائه بهذا الوعي آمِن وسعيد، وبيتًا ينبض بهذا الإحساس روضةٌ من رياض الجنة.

لا سبيل لإنقاذ البشرية من العبثية والفوضى إلا الإيمان بالبعث بعد الموت، الإيمان بالبعث -وحده- يمنع الشباب من الاندفاع وراء النزوات الطائشة، ويكبح جماح عواطفهم الثائرة المتأججة.. الإيمان بالبعث -وحده- يفجّر الأمل في قلوب الشيوخ الذين يرون أنفسهم يتدحرجون نحو هاوية الموت لحظةً فلحظة فتخبو جذوة الأمل في قلوبهم ويصابون بالانهيار مع كل خطوة تدنيهم من النهاية.. الإيمان بالبعث -وحده- يوقد شموع الفرح والسعادة في قلوب الأطفال الرقيقة كل حين.

الشباب والشيوخ، الرجال والنساء، العادلون والظلمة.. الكلّ في مسيس الحاجة إلى الإيمان بالبعث حاجتَهم إلى الماء الذي يشربون، والهواء الذي يتنفسون، فمن شرب من هذا الزلال، فقد ارتوى سكينة وطمأنينة وسلامًا، لذا، فرواد الفكر الذين يعملون على إصلاح البشرية وإقرار السلام في النفوس، ينبغي أن يعالجوا المشاكل الاجتماعية المتأزمة من هذه الزاوية كذلك.

أجل، سعادة الفرد والأسرة والمجتمع، بل سعادة الإنسانية جمعاء، لا تتحقق إلا إذا آمن المرء بأنه مسؤول في الآخرة، ومُحاسَب على أعماله كلها صغيرها وكبيرها، وها هو القرآن يغرس الشعور بالمساءلة في القلوب بقوله: ﴿**فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۞ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ**﴾ (سورة الزَّلْزَلَة: ٩٩/٧-٨)، فإذا استقر هذا الشعور في قلب إنسان

مـا، يمكنـك أن تقول له حينئذ بكل ثقة: "افعلْ ما شـئت، فأنت حرّ"، لأن الواقـع سـينبهه دائمًا إلى أن أعماله مرصودة، وأن لها ثمنًا سـيلقاه لاحقًا حتمًا، ومن كان هذا شـأنه، فلن يفعل ما يُحرجه يوم الحسـاب أمام العباد ورب العباد.

بَلْسم الأطفال

لا يهـدّئ نفـسَ الطفل الرهيفة ويُدخل السـكون فـي قلبه المضطرب الرقيق إلا الإيمان بالآخرة، ولو عاد كلٌّ منّا بخياله إلى أيام طفولته وحلّلها من هذه الزاوية، صدّق على ما نقول.

أجـل، قلـب الطفـل رقيـق وحسّـاس، لا يملـك القدرة علـى تحليل الأحـداث وتفسـيرها بواقعيـة وعقلانيـة، كمـا لا يسـتطيع تخدير نفسـه بالملاهـي كمـا يفعل الكبـار، فوقـع الموت على قلبه أشـدّ من وقعه على الكبـار، كل حبيـب يغادر هذه الحياة، يأخذ معـه فلذة من كبده المكلومة، وإذا كان الراحـل أبـاه أو أمـه أو كليهما معًا، فذلك يعنـي الطامة الكبرى؛ فتخبو النجوم التي تضيء سـماء روحه، ويسـود الظلام في فضاء وجدانه، وأحسب أن صاحب كل قلب يشعر بهذه المشاعر.

عندمـا كنت صغيرًا توفـي أحد إخوتي، كنت أذهب إلى قبره، أبسـط كفـي نحـو السـماء مناجيًا: "يا رب، هلا بعثته مـن جديد حتى أرى وجهه الجميل مرة أخرى".

كيـف تطفئـون حرقة هـذا القلب المفجـوع؟ كيف توقفـون أنين هذه الـروح الجريحـة إذا انتزعتم منهـا الإيمان بالآخرة؟ لن تجـدوا دواء لهذا الـداء العضال، ولن تسـتطيعوا إطفـاء تلك النار المتأججـة مهما حاولتم، الإيمـانُ بالبعـث فقـط يمكـن أن يسـرّي عـن هـذا الطفـل الـذي يتخبط

في دوامة من الهواجس والاضطرابات، الإيمان باليوم الآخر، هو المرهم الوحيد الذي يهدئ من روعه.

لا سبيل إلى مواساة هذا القلب الصغير، وإخراجه من مصابه الكبير وهو يهتز بفقد الأحبة واحدًا بعد الآخر، إلا إذا آمن بأنهم طاروا إلى الجنة الخالدة جميعًا. نعم، رحيل قريب أَلِفَه، أو كبير أحبّه، أو حبيب تعلّق به، يترك في قلبه الرقيق جروحًا غائرة لا تندمل.. ولا يمكن مداواة هذه الجروح -لا سيما إذا كان الراحل صغيرًا- إلا بالتفكير على النحو التالي:

> "لقد رحل من هنا، لكن الله فتح له أبواب الجنة على مصاريعها، فهو الآن يرفرف طائرًا في رياض الجنة، وإنْ أَمُتْ أرفرف مثله أيضًا".

أما إذا كان الفقيد كبيرًا فسيردد في نفسه: "إنه مات، ولكنه سيضمّني إلى صدره في الجنة، ويُجلسني في حجره، ويمنحني حبه وحنانه، ويربّت على ظهري ويمسّد شعري"، وبذلك تخفت حرقة الفراق التي أشعلها الموت، وتندمل جراحه النازفة.

هل تبحثون عن السلام؟ إنكم لن تجدوه في مداخن المصانع التي تملأ الأرض، ولا في ترتيب رحلات فضائية بين الكواكب، السلام الحقيقي هو ثمرة هذا الإيمان. أجل، الإيمان الذي يرتكز على عقيدة البعث والنشور هو منبع السلام الحقيقي.

أنيس الشيوخ

الشيوخ.. الشيوخ الذين يدنون من الموت خطوة خطوة.. بم تهدأ نفوسهم؟ وكيف يتخلصون من القلق المريع إذا لاح لهم القبر فاغرًا فاه

وهـم يندفعون إليه اندفاعًا؟ كيـف يخفّفون الكرب الجاثم على صدورهم كلما أحسـوا بدبيب الشـيب يسري في رؤوسهم؟ كيف يُرمِّمون ما يحدث في أرواحهم من فجوات عميقة إثر هذه الانهيارات؟ وكيف يمسحون من قلوبهم شـروخًا تعاظمت طوال عمر مديد جراء مفارقة الأحبة من صديق وولد وحفيد؟

وهـل من سـلوان لهؤلاء الشـيوخ وقـد غادرهـم الشـباب، وفارقهم الجمـال، وانفـضّ عنهم المنصب والجاه مخلِّفًا في نفوسـهم آثارًا رهيبة؟ إن لجأتم إلى التسرية عنهم بشيء مادي، أفلن يلبث أن يزول ويورث في أعماقهم جروحًا جديدة يصعب اندمالها؟ إذًا فلا سـبيل لإدخال الطمأنينة في قلوب الناس كافة -ولا سيما الشيوخ منهم- إلا سبيل الإيمان بالبعث بعد الموت.

الإيمـان بـأن القبر الذي يحسـبه غـولًا مروّعًا يترقب لحظـة ابتلاعه، ليس إلا بابًا متواضعًا ينفتح إلى ممر يبلـغ بصاحبه إلى عالم آخر مضيء، وقاعـةَ انتظـار ينتقـل الناس عبرها إلى ريـاض الجنة، ومنـزلًا تتعاقب فيه أمـواج الرحمـة والمغفرة.. هـذا الإيمان فقط، هو مبعث السـلوى ومنبـع الأمل لتلك القلوب.

إن القـرآن وهـو يحكي لنا قصـة زكريا عليه السلام، يصور على لسـانه -في إيقاع موسيقي رائـع- أنين إنسان تأهّب للرحيل عن هذه الحياة: ﴿**قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا**﴾ (سورة مَرْيَمَ: ١٩/٤)، وهنـا يتجلى جانب من جوانب الإعجـاز القرآني؛ إذ يصور الأنينَ المنبعـث مـن أعماق الروح بهـذه الصورة الفريدة، ولـو أن كل ذي حس

تَسمَّع إلى وجدانه لوجد الابتسامة الحزينة التي ترتسم على شفاهِ القلب، ولأحسّ بهذا الأنين المنطلق من الأعماق، ولن تهدأ تلك العاصفة التي تهزّ أركان الروح، إلا بالإيمان بحياة أخرى، لأن الإيمان هذا، يهمس بأنفاسه الباعثة للحياة هذه الكلمات: "لقد أتممتَ حياتك، وأدّيت مهمتك، ومن ثم فإن صاحب الرحمة الواسعة الذي أرسلك إلى هذه الدنيا، لن يتركك تشقى في هذه الصحارى بعد اليوم، لذا سيقرّبك إليه، ويُفيض عليك من نعمه التي أعدّها لك خصيصًا".

أجل، إن مثل هذه الكلمات التي تفوح بالبشرى؛ تفتح أبواب السعادة والاطمئنان الحقيقي لذلك الشيخ.. كيف لا، وهو الآن يستعد للسفر إلى موطنه في عالم الجنان.

حِمى الشباب

الشباب يشكلون معظم المجتمعات، فإن كانوا طائشين معتدين؛ فالحياة معهم نار لظى، وإن كانوا صورة من الصحابة تشع حياتهم نورًا، ووجوههم بِشْرًا، وتصرفاتُهم تُنبئ عن وجود الله، وتتلألأ الجنة في نظراتهم؛ فالحياة معهم كلها جنة. أجل، عندما يَثبُت الإيمان بالبعث والنشور في قلوب الشباب، يكتشفون أسرار نفوسهم وحقيقة ذواتهم، أما إن اجْتُثَّ هذا الشعور من عقولهم وقلوبهم، يصبحون يومها مصدر إفساد للبشرية، فالبشرية اليوم شقية بسبب شبابها الذين تضطرب حياتهم كلها بشتى التصرفات الجنونية، لقد حاول علماء التربية أن يحلوا هذه المشكلة، إلا أنهم وسّعوا الجرح أكثر فأكثر بمعالجاتهم الخاطئة حتى بات متعذر الاندمال، بينما علاج هذا الداء هو الإيمان بالبعث بعد الموت ليس إلا.

الحل الحقيقي يكمن في أن يُنشَّأ الشباب تحت ظل هذا الإيمان، ويستقرَّ في نفوسهم أنهم سيحاسبون على كل خطوة يخطونها في حياتهم الدنيا.

يحكى أن الفاروق عمر ﷺ كان في طريقه إلى المسجد، فرأى غلامًا يهرول إلى المسجد، فأسرع حتى لحق به وسأله:

- يا غلام، ما لي أراك مسرعًا ولم تفرض عليك الصلاة بعد؟

فردّ بعبارة وجيزة قائلًا:

- توفي غلام في حيّنا البارحة!

الحياة لا تستقيم إلا بتنظيمها على أساس أن عينًا -لا تخفى عليها خافية- تراقب الإنسانية، وتسجل أفعالها كلها ليوم تحاسَب فيه عليها.

وعليه، فإذا كانت الإرادة الربانية الكلية هي التي تدبّر الكون وتنظّم شؤونه وتصرّف أحواله، فإن الإنسان -بالمقابل- هو المكلَّف بتنظيم حياته بإرادته الجزئية التي مُنحتْ له، وإذا وفّى هذه الإرادة حقها، تجلى الله برحمانيته ورحيميته، وجزاه جنة تلبي كل أشواقه الروحية ومتطلباته الجسدية.. جنة فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين.

فالإرادة من تجليات اسمي الرحمن الرحيم، والجنة صورة كاملة لتجليات هذين الاسمين، فإذا وظّف الإنسانُ تَجَلِّيَ الرحمن الرحيم -وهي الإرادة- توظيفًا حسنًا؛ جنى ثمار ذلك جنة عرضها السماوات والأرض.

أجل، إن البشرية إذا نظمت دنياها تحت ظل آخرتها، ولم تنس ذلك اليوم الذي تُبلَى فيه السرائر وتكشف فيه الخفايا، بلغت السعادة الحقيقية، وخاصة الشباب؛ إذ يشعرون بالسلام يغمر قلوبهم، فتستقيم سبل الحياة لهم وتنتظم أمورهم، ولا يعكرون على البشرية صفوها.

وهاكم قصة الفتى الأنصاري التي تخفق لها القلوب، وتهتز لها النفوس؛ فقد روى الحاكم في مستدركه: عن سهل بن سعد، أن فتًى من الأنصار دخَلَتْه خشيةٌ من النار، فكان يبكي عند ذكر النار حتى حبَسَه ذلك في البيت، فذُكِر ذلك للنبي ﷺ، فجاءه في البيت، فلما دخل عليه اعتنقه الفتى وخرّ ميّتًا، فقال النبي ﷺ: "**جهِّزُوا صَاحِبَكُمْ، فَإِنَّ الْفَرَقَ مِنَ النَّارِ فَلَذَ كَبِدَهُ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ أَعَاذَهُ اللهُ مِنْهَا**"(٢).

ويقول الله تعالى: ﴿**وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ۞ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى**﴾ (سورة النَّازِعَاتِ: ٧٩/٤٠-٤١)، إن الإنسان الذي يتدبر عاقبته، ويخشى الوقوف بين يدي الله يوم الحساب، فينظّم حياته وفقًا لهذه الخشية؛ لا بد أن يلقى ربه آمنًا مطمئنًّا، ففي الحديث القدسي يقول صاحب الرحمة اللانهائية: "**وَعِزَّتِي لَا أَجْمَعُ عَلَى عَبْدِي خَوْفَيْنِ وَأَمْنَيْنِ، إِذَا خَافَنِي فِي الدُّنْيَا أَمَّنْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِذَا أَمِنَنِي فِي الدُّنْيَا أَخَفْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**"(٣).

فمن خاف هنا أمِن هناك.. أيُّ دستور غير هذا يكبح جماح الشباب؟

(٢) الحاكم: **المستدرك**، ٥٣٦/٢؛ البيهقي: **شعب الإيمان**، ٥٣٠/١؛ الأصبهاني: **الترغيب والترهيب**، ٣٠٦/١.

(٣) عبد الله بن المبارك: **الزهد والرقائق**، ص ٥٠؛ ابن حبان: **الصحيح**، ٤٠٦/٢. البيهقي: **شعب الإيمان**، ٢٢٣/٢.

وأيُّ حِمى غير هذا الحِمى يقي الإنسان من التشرد والعصيان؟ لذا، لا بد للمشرفين على تربية الشباب والقائمين على تنشئتهم، أن ينتبهوا إلى هذه الحقيقة الواضحة، ومن ثم ينقلوها إلى ساحة التطبيق.

الشباب يعني كل شيء، وإذا عالجنا المسألة في ضوء حكمة تُنسب إلى سيدنا عمر ﷺ: "إنّ القومَ إذا ضاعَ فتيانهم فقد هلَكوا" والتي قالها عندما رأى شابًّا يزأرُ إزاء انتهاك حرمة، يمكننا القول إن الشباب المتشبع بالقيم السامية والأفكار الرفيعة، هو مصدر حياة المجتمعات، والأمةُ التي لديها هذا النوع من الشباب تملك من الاستعداد ما تبني به حضارات جديدة وعديدة، إذًا الشباب الذي يجيش صدره بمشاعر الإيمان بالآخرة، أهم عامل في تقدم الأمم ورقيّها.

والخلاصة أنه لن يقدر على تأسيس عالم تشيع فيه السعادة وينتشر فيه السلام إلا القلوبُ المُتْرَعَةُ بالإيمان، وهي وحدها الجديرة بحياة وادعة رَضِيَّة، فالشبابُ إما أن ينهضوا بالأمم، وإما أن ينتكسوا بها، وهؤلاء إما أن يكونوا منبع حياة للشعوب، أو مصدرًا لهلاكها.

رفيق المرضى والمظلومين والمنكوبين

إن المرضى والمظلومين والمنكوبين يشكّلون -أيضًا- جزءًا كبيرًا من البشرية، ولا ريب أن لِعقيدة الحشر والنشور التأثيرَ البالغَ في نفوس هؤلاء الناس وأرواحِهم.

فالمريض الذي يحس بأنفاس الموت تقترب منه كل لحظة، ويجد نفسه مندفعًا -بلا إرادة منه- إلى ظلمة القبر، ليس له من أمل سوى

أن يستيقن أن القبر ردهة تنفتح إلى عالم آخر، ولن يطمئن له قلب أو يذوق للبهجة والسرور لذة، إلا إذا آمن أن القبر ممرّ يمتد إلى ديار السعادة وعوالم الخلد، بهذه الطمأنينة وبذلك اليقين يتسلى المريض عن آلام الرأس والظهر المُبْرِحَة، وأوجاع السرطان المؤرقة، وبهما أيضًا يقاوم ما يعتمل في نفسه من مخاوف وهواجس كلما أحس بحدة مخالب الموت وهي تنهش أحشاءه، فيقول:

"أنا راحل، ولن يستطيع أحد أن يوقف هذه الرحلة، غير أني مسافر إلى عالم أكتسب فيه صحتي الحقيقية، وأنال شبابًا أبديًّا.. أنا ذاهب إلى ديار الله التي يصير إليها الناس جميعًا"، وهكذا ينسى مرضه، وتخفّ آلامُه.

وإننا نلحظ على شفاه أولياء الله المقربين عندما يسلمون أرواحهم إلى بارئها بسمةً تتبدّى كأنها أكمام ورود متفتحة.. إنها بسمة الوصال بالحبيب، وعندما حانت لحظات سيد الأنبياء الأخيرة، سحب يديه من بين يدي عائشة ﵂ وردّد قائلًا: "**اللَّهُمَّ الرَّفِيقَ الأَعْلَى**"(٤)، وهو نفسه الذي قال قبلها بأيام قلائل: "**إِنَّ عَبْدًا خَيَّرَهُ اللهُ بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا مَا شَاءَ، وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ، فَاخْتَارَ مَا عِنْدَهُ**"(٥).

لم يكن ذلك العبد الذي خُيِّر بين الدنيا والآخرة سواه ﷺ، لذلك لم يتمالك أبو بكر ﵁ ذلك الصحابيُّ الجليلُ الذي أدرك حقيقة هذا المعنى دموعَه فسالت، وعندما حانت اللحظة، نرى ﷺ يسحب يده من بين يدي عائشة ﵂، ويختار الرفيق الأعلى.

(٤) **صحيح البخاري**، فضائل الصحابة، ٥؛ **صحيح مسلم**، فضائل الصحابة، ٨٥.

(٥) **صحيح البخاري**، مناقب الأنصار، ٤٥؛ **صحيح مسلم**، فضائل الصحابة، ٢.

كذلك عمر بن الخطاب ﷺ -تلك الشخصية السامقة- نراه مستلقيًا على البطحاء، متوسدًا الأرض، رافعًا يديه إلى السماء داعيًا ربه: "اللَّهُمَّ كَبِرَتْ سِنِّي، وَضَعُفَتْ قُوَّتِي، وَانْتَشَرَتْ رَعِيَّتِي، فَاقْبِضْنِي إِلَيْكَ غَيْرَ مُضَيِّعٍ وَلَا مُفَرِّطٍ"(٦)، وقال مرة: "اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي شَهَادَةً فِي سَبِيلِكَ، وَاجْعَلْ مَوْتِي فِي بَلَدِ رَسُولِكَ ﷺ"(٧).

ما الباعث الذي يُجري على ألسنتهم هذه الكلمات، ويثير في أنفسهم حب الموت يا ترى؟ إنه الإيمان بالآخرة، والتطلع إلى عوالم تتجلى فيها أبهى صور الجمال، وأبدع مشاهد الرحمة والإنعام، والأهم والأعظم من كل ذلك هو الشوق إلى رؤية جمال الله الباقي الأبدي.

ولا تخمد ثورة المظلوم الذي يتحرّق شوقًا ويتقلّب حرصًا على الثأر من الظالم الذي انتهك حرمته، ولوّث شرفه وعرضه، إلا إذا تصور ذلك اليوم الذي يؤخذ فيه بتلابيب هذا الظالم أخذَ عزيزٍ مقتدِرٍ، وتَصوّرَ تلك الدار التي يُغدق الله فيها عليه ما لا يحصى من العطاء لقاءَ ما عاناه في الحياة الدنيا.

هكذا يعزي نفسه ويسري عنها، فالمظلوم يوقن حقّ اليقين أن الظلم لا يذهب سدًى بلا عقاب، لا بد أن يأتي يوم تُعقَد فيه محكمة كبرى، وتوزن فيه كل الأعمال بميزان دقيقٍ، فيعاقَب الظالم، ويكافَأ المظلوم، يقول تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ**﴾ (سورة هُودٍ: ١٠٢/١١)؛ أي إذا أخذ الله القرى وهي ظالمة، فلن تجد

(٦) **جامع معمر بن راشد**، ٣١٥/١١؛ **موطأ الإمام مالك**، الرجم والحدود، ١.

(٧) **صحيح البخاري**، الحج، ٢٢٦.

أبـدًا مَن يُنجيها، وبهذا الأخـذ يكون المظلوم قد انتقم من الظالم المتجبّر عليه، وروّح عن نفسه.

أما المنكوب الذي دَهَتْه مصائب سـماوية أو أرضية.. أصاب بسـتانه البَـرَد أو جرفه السـيل، أو هز الزلزال منزله فهدمـه، وأهلك عياله، وأحال عمرانه إلى خراب وأنقاض.. هذا الرجل لا يسليه عما ألمّ به من المصائب إلا تصـوُّرُ البعـث بعـد الموت، فهذا التصور يخبره بـأن المال الذي ضاع في الكارثة صدقة، والنفوس التي زهقت شـهيدة، وهكذا يتنسـم قلبُه برد السكينة والاطمئنان.

ومـن هنا يظهـر جليًّا أن البيت الذي تفوح فيه روائح الإيمان بالآخرة يسـتحيل إلـى روضة من ريـاض الجنة، أما إذا تلاشـى منه هـذا الإيمان، تحول إلى حفرة من حفر النار، فما فرقُ هذا المنزل -وإن كان في وسـط العمران- عن خَرِبة يسكنها البوم ويتجاوب النواح في أرجائها؟

ولـدٌ بعيـد عن الحيـاة الدينية ومشـاعرها، وشـاب هائم فـي أهوائه، ومريـض يترقب سـاعة الموت ويتلـوى في آلامه وجوهٌ عابسـة متجهمة، ونظرات مظلمة قاسية.. والأسوأ من ذلك كله هو الفرارُ من هذه السلبيات بتخديـر العقـل والقلب بالملاهـي، والابتعادُ عن فطرة الـذات وحقيقتها، هذا، ولا يمكن أن تلج السعادة ذلك المنزل إلا بالإيمان بالبعث والنشور بعد الموت.

أحلام المدينة الفاضلة

إذا كنتـم تحلمـون بإدخال السـلام في قلوب الإنسـانية كلها صغيرها وكبيرهـا، فـلا بد أن تغرسـوا عقيدة الحشـر في قلوبها إلى أن تسـتقر فيها

وتتمكن منها، حينئذ تستقيم أمور الشباب، ويترك الأولاد العبث، وتغمر السعادة أرواح الشيوخ حيث يؤمنون أنهم في سبيلهم إلى الجنة، وتومض بوارق البهجة والسرور في أنحاء كل بيت، وتترنم الألسنة بمعانٍ من الآخرة قبل الانتقال إليها، فتتمثل حياة الجنة في الدنيا واقعًا.

المدن منازل الإنسان الكبيرة، فكيف يعم السلام دنيا شبابُها عبيد لأهوائهم، وشيوخها قد استبد بهم اليأس والقنوط، وظُلَّامُها يستمتعون بأنات المظلومين كأنها ترنيمات ناي شجية، المدن والبلاد في مثل هذه الدنيا خالية من السعادة، لأنها خالية من أسبابها.

للصلاة أركان لا تصح الصلاة إلا بها، وإذا شملها الخشوعُ تبلغ ذروة الكمال، فيُحسّ العبدُ ببسمة المعراج الحلوة ترتسم على شفتيه، وقد تقع له لحظة لا تساويها لذائذ ألف سنة، كذلك لا تحظى المجتمعات والأمم بالسعادة كاملة إلا إذا توفرت أسبابها وأركانها في أفرادها التي تكونها، فلا تقوم مدينة مثالية إلا تحت ظل نظام مثالي، فلندع أفلاطون يحلم بهذه المدينة المثالية في "جمهوريته"، ولنترك الفارابي يسبح في خيالاته ويرسم خطوطها في "مدينته الفاضلة"، فهم لن يستطيعوا استخراج المدينة المثالية إلى ساحة الواقع أبدًا، لأنها محرومة من الأركان التي تقوم عليها، وأعظم ركن ينشر السلام في الحياة ويُوشِيها به؛ هو الشعور بصَغار الدنيا والزهدُ فيها، ثم الإيمانُ بالآخرة والتطلع الدائم إليها.

ومن ثم يمكننا أن نقول إن من أعظم الإنجازات التي أجراها رجل العدل والميزان ﷺ، هو أنه أقام نظام العالم الذي أنشأه على ركن ركين، وهو فكرة الحساب على الأعمال كلها، فما هذه الحياة إلا مقدمة للآخرة،

ومزرعة لها، والفرصة الوحيدة التي وُهبت للإنسان كي يوقد في قلبه نورًا للآخرة، ولذلك أطلق لهذه الحياة اسم الدنيا، ولتلك اسم الآخرة، فالبذور التي تُلقَى هنا تُحصَد هناك.

هـذا هو الدرس الذي بثه الرسـول ﷺ في القلوب كلها؛ فسـكنت به، واطمأنـت لـه، وفاضت بأنواره حتى باتت الدنيا صغيرة زهيدة لا تسـاوي شيئًا في أعين ذلك الجيل الذهبي.

عـن أم سـلمة رضي الله عنها قالـت: أتـى رسـولَ الله ﷺ رجـلان يختصمان في مواريث لهما لم تكن لهما بيّنة إلا دعواهما، فقال النبي ﷺ: "**إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِنَّكُـمْ تَخْتَصِمُـونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُـونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، وَأَقْضِيَ لَهُ عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمَعُ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا فَلَا يَأْخُذْ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ**"، فَبَكَى الرَّجُلَانِ، وَقَالَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا: حَقِّي لَكَ، فَقَالَ لَهُمَا النَّبِيُّ ﷺ: "**أَمَّا إِذْ فَعَلْتُمَا مَا فَعَلْتُمَا فَاقْتَسِـمَا، وَتَوَخَّيَا الْحَقَّ، ثُمَّ اسْتَهِمَا، ثُمَّ تَحَالَا**"(٨).

وهكـذا نـرى كيف انتظمت الحياة تحت ظل الإيمان بيوم الحسـاب، لقـد بلـغ الأمر من الجدّ إلى درجة أنه عندما أدرك أحد الصحابة أنه خان الله ورسولَه، مضى لفوره إلى المسجد النبوي، فربط نفسه بسارية، وحلف ألا يحل نفسـه حتى يتوب الله عليه.. هكذا عاقب نفسـه، وآخر يعتقد أن السيئة التي اقترفها لا يمحو آثارها من القلب إلا دمٌ يراق في سبيل الله، فلا تخامـره ذرة مـن تردد، فيخوض المعركة، ويقاتل فيراق دمه فيتجرع كأس الشهادة.. كل ذلك ليلقى ربه طاهرًا نقيًّا.

(٨) صحيح البخاري، الحيل، ٩، الأحكام، ٢٠؛ سنن أبي داود، الأقضية، ٧.

وفي مشهد من مشاهد أُحُد المؤثرة، نجد سعد بن الربيع ﷺ مسجًّى على الأرض، ممزق الأطراف، وقد سالت منه الدماء، وكاد يلفظ أنفاسه الأخيرة، يقول لأبيّ بن كعب: "أقرئ رسول الله مني السلام.. واهًا لريح الجنة، إني أجده دون أحد"(٩).

أيّ شيء يستطيع أن يغمر قلبَ الإنسان بالسعادة حتى في لحظات الاحتضار؟ وأيّ تقدم بشري يستطيع أن يمنح الفردَ والعائلة والمجتمع هذه السعادة، سوى الإيمان بالآخرة؟

وحتى نفهم بعض الشيء كيف ربّى ذلك النبي العظيم أمتَه، نستعرض بعض الدرر التي جرت على لسانه الشريف ﷺ عن البعث والنشور، يقول الرسول ﷺ: "**يَا أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ إِلَى اللهِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلا**"، أيْ إنكم تُبعثون روحًا وجسدًا كي تشاهدوا الجنة التي لم تدركوها في الدنيا على حقيقتها، ولكنكم أحسستم بها في قرارة نفوسكم، والأهم من ذلك تبعثون لكي تروا جمال الله الذي شاهدتم تجليات أسمائه وصفاته، لكنكم لم تحيطوا بكنه ذاته سبحانه، ثم يقول ﷺ: "**أَلَا وَإِنَّ أَوَّلَ الخَلَائِقِ يُكْسَى يَوْمَ القِيَامَةِ إِبْرَاهِيمُ، أَلَا وَإِنَّهُ يُجَاءُ بِرِجَالٍ مِنْ أُمَّتِي فَيُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتَ الشِّمَالِ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أُصَيْحَابِي، فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ كَمَا قَالَ العَبْدُ الصَّالِحُ: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۞ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾** (سورة الْمَائِدَة: ٥/١١٧-١١٨)"(١٠).

(٩) الحاكم: المستدرك، ٣/٢٢١.

(١٠) صحيح البخاري، الأنبياء، ٨؛ صحيح مسلم، الجنة، ٥٨.

وجاء في حديث رواه الطبراني في الأوسط -وإسناده جيد- عن أنس ابن مالك ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: "**لَمْ يَلْقَ ابْنُ آدَمَ شَيْئًا مُنْذُ خَلَقَهُ اللهُ ﷻ أَشَدَّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ**"، ثُمَّ قَالَ: "**إِنَّ الْمَوْتَ أَهْوَنُ مِمَّا بَعْدُ، وَإِنَّهُمْ لَيَلْقَوْنَ مِنْ هَوْلِ ذَلِكَ الْيَوْمِ شِدَّةً حَتَّى يُلْجِمَهُمُ الْعَرَقُ، حَتَّى لَوْ أَنَّ السُّفُنَ أُجْرِيَتْ فِيهِ لَجَرَتْ**"[١١].

وهذا الحديث المنقول عن أبي هريرة ﷺ يفصّل الحديث السابق:

"**يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى ثَلَاثِ طَرَائِقَ رَاغِبِينَ رَاهِبِينَ، وَاثْنَانِ عَلَى بَعِيرٍ، وَثَلَاثَةٌ عَلَى بَعِيرٍ، وَأَرْبَعَةٌ عَلَى بَعِيرٍ، وَعَشَرَةٌ عَلَى بَعِيرٍ، وَيَحْشُرُ بَقِيَّتَهُمُ النَّارُ، تَقِيلُ مَعَهُمْ حَيْثُ قَالُوا، وَتَبِيتُ مَعَهُمْ حَيْثُ بَاتُوا، وَتُصْبِحُ مَعَهُمْ حَيْثُ أَصْبَحُوا، وَتُمْسِي مَعَهُمْ حَيْثُ أَمْسَوْا**"[١٢].

لقد كان الرسول ﷺ يربّي أمته بهذا الإيمان الراسخ، وكان الصحابة الكرام ﷺ يسيرون بحذر شديد وكأنهم يرون جهنم وأهوالها، والجنة وزخارفها، والسبيلُ الوحيدة لإنشاء حياة فاضلة مستقيمة كهذه هي التأدبُ بهذه العقيدة، وزرعُها في القلوب، والانطباعُ عليها، والتكيفُ بها.. وإلا ضاعت الاستقامة، وضاعت الفضائل، وبالتالي ضاعت المجتمعات، وإذا لمحنا عليهم آثارًا من الفضيلة، فليس ذلك إلا بسبب الجوهر الإنساني المكنون في فطرة الإنسان، والذي لا يمكنهم مخالفته، لأنه مركوز في الفطرة، ومن ثم يحملهم على أعمال فاضلة تلقائية، غير أنها ليست أبدًا على مستوى الفضيلة التي تُكتسب بالاجتهاد والإرادة.

---

(١١) الطبراني: **المعجم الأوسط**، ٢/٢٧٧.

(١٢) **صحيح البخاري**، الرقاق، ٤٥؛ **صحيح مسلم**، الجنة، ٥٩.

القرآن الكريم وحقيقة البعث والنشور

القيامة واقعة لا محالة، وهي حقيقة أكدتها العلوم الوضعية وأهل العلم بالإجماع، إلا أن العلماء يتوقعون ذلك في مستقبل بعيد، في حين يمكن أن تقع في أي لحظة نتيجة حدث من الأحداث الاستثنائية العديدة التي تطرأ على الأرض يوميًا.

فلو أراد القمر -مثلًا- الذي انفصم عن الكرة الأرضية في ماض سحيق، أن يعود إلى صدر أمه مرة أخرى، فسوف يؤدي ذلك إلى انفجار هائل يدمر الأرض وفق القوانين الذرية.

وقد ورد في الحديث النبوي أن الرسول ﷺ عندما كان يشرح لأمّنا عائشة ﵂ كلمة "غاسق" في قوله تعالى: ﴿**وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ**﴾ (سورة الفَلَق: ٣/١١٣)، أشار إلى القمر وقال ﷺ: "**يَا عَائِشَةُ اسْتَعِيذِي بِاللهِ مِنْ شَرِّ هَذَا، فَإِنَّ هَذَا هُوَ الغَاسِقُ إِذَا وَقَبَ**"[١٣]، ولذلك اعتبر أهل الخبرة والدراية رؤية القمر في المنام علامة للشر، ورؤية الشمس علامة للخير، وعبروا الرؤى بناءً على ذلك.

(١٣) **سنن الترمذي**، تفسير سورة ١١٣؛ **مسند الإمام أحمد**، ٢١٥/٦.

وقـد تقوم القيامـة باصطدام مذنَّب بالكرة الأرضيـة، أو بتجربة نووية خاطئـة.. فمهما كانت الأسـباب الظاهرية، فإن القدرة التي تمسـك بزمام المؤثـرات المبثوثة في ثنايا كل هذه الأحداث، سـتأمر بنفـخ الصُّور يومًا، وتقوم القيامة الكبرى لا مناص.

لقـد عالـج القرآن الكريم حقيقـة البعث بعد الموت من زاوية التمثيل القياسي وتقديم النظير، فمن خلال هذه الزاوية يثبت القرآن الكريم وجود البعث والنشـور، حيث يقدم أدلة من الكون الشاسـع تارة، وأدلة من عالم الـذرة الصغير تارة أخرى، كما يجمـع بين آيات الكون العظيمة وعجائب الذرة في سـياق واحد، وهذا ما نسـميه بـ"الدليل الكلّي"، إذ يتم التأكيد به على الخلق بمعناه المطلق، وفيما يلي نحاول شرح ما ذكرناه:

يبسط القرآن الكريم أدلة دامغة على وجود الحشر والنشور من خلال التمثيل القياسي عبر آيات الكون: ﴿**اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْـتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّـمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ**﴾ (سورة الرَّعْدِ: ١٣/٢).

إن الله الذي سـيبعث الناس ويحشـرهم من جديد، رفَـع السـماء بغير عمَـد نراهـا، ووضـع لهـا نظامًا تتحـرك فيه النجـوم وتجري إلـى أجَلها المسـمى.. لا شـك أنكـم تندهشـون من ارتفاع هـذه السـماء دون عمَد، وتذهلـون مـن حركتها الدائمة دون أيّ خلل أو فتور! ثم يسـتوي الله -أيًّا كان معنى "الاسـتواء" على الخلاف المذكور في علم أصول الدين- على العرش وينفذ حكمه من هناك، وبالتالي يسـخّر الشـمس والقمر ويعطيكم زمام الاستفادة منهما.. كل ذلك يتم بحسابٍ دقيق ليريكم رب العزة لَأْلَاءَ الحكمة من علمه اللانهائي.

أجل، البعث والنشور وعد من الله سبحانه، فهو الذي يكشف عن آيات قدرته في كل شيء، وهو الذي يقوم بتنظيم كل ما في الأرض والسماء؛ يفصّل آياته لكم لتدركوا قدرته وعظمته، ولتفكّروا وتتأملوا وتؤمنوا بحقٍّ أنكم سترجعون إليه في يوم من الأيام مهما طال الزمن.

إننا نؤمن بالآخرة، ونؤمن -كذلك- بوحدانية الله ﷻ.. وإنه تعالى بعظمة ربوبيته وقداسة حكمته سيأمر بقيام الحشر وبالطريقة التي يشاؤها هو.

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (سورة الأَنْبِيَاءِ: ٢١/١٠٤)؛ أي نحن مَن سنطوي السماء كطي السجل للكتب ونخرجها من ماهيتها التي هي عليها الآن.. عندها تفقد حركتها وحرارتها ثم تتوقف عن الدَّوَران.. سنطوي كتاب الكون الذي أخرجناه من محفظته وفرشناه أمام بصائركم، ثم نعيده إلى محفظته كما بدأناه في أول خلقه، فكل المخلوقات ستعود إلى خلقها الأول في نهاية المطاف، فكما سكتت الأسباب عند الخلق الأول، فستسكت كذلك عند الخلق الثاني، ثم سنفتح الكتاب كرة أخرى كما طويناه، ونخلق الذرات من جديد.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (سورة الأَحْقَافِ: ٤٦/٣٣)؛ إن الله تعالى الذي خلق السماوات والأرض وسيّرهما داخل نظام بديع دون عيّ منه ولا تعب، أَوَليس قادرًا على أن يحيي الموتى من جديد؟ أمعنوا النظر في الكائنات وتأملوا فيها جيّدًا، سترون بجلاءٍ قدرةَ الله في كل شيء، إنه تعالى لا يمسّه تعب ولا يحتاج إلى راحة أبدًا، وفي آية أخرى يقول تعالى:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ (سورة ق: ٣٨/٥٠).

أجل، أوليس الله بقادر على إحياء الموتى من جديد؟

إن التمثيل القياسي في القرآن الكريم هو منهج استدلال واضح، وعن طريقه تقدَّم أدلة وبراهين من العالم الفسيح الذي نعيش فيه لإثبات خلّاقية الله ﷻ جلية، ولتهيئة الأذهان للإيمان بخلق الكون من جديد، ومن ثم يزداد الإنسان يقينًا بيوم البعث والنشور.

﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ (سورة يس: ٨١/٣٦)، ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ (سورة النَّازِعَاتِ: ٢٧/٧٩).

أَوَأنتم أشد خلقًا أم خلقُ الجن وخلقُ كل ما يحيط بالإنسان من قوانين وأنظمة؟ أَوَيعجز القدير المطلق الذي أقام قصْرَ الكون عن بناء قصور أخرى لكم في الجنة؟

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (سورة فُصِّلَتْ: ٣٩/٤١).

عندما جفت تربة الأرض وأجدبت؛ تمثلت -كالإنسان الذي يعترف بعجزه أمام ربه- أمام الله خاشعة خاضعة تسأله الإمداد بالغيث والماء، فيغيثها بالمطر، فتنتعش وتهتز وتتحرك، ثم تبدأ البذيرات تتشقق، والبراعم تطل برؤوسها من تحت الأرض، وسرعان ما تتحول الأرض إلى خضرة أخاذة وحدائق غناء، وهذا دليل على أن الله ﷻ قادر على إحياء الموتى

كما يحيي الأرض الميتة في كل ربيع. أجل، إن مَن يبعث هذه النباتات في كل ربيع ويفرشها أمام أنظاركم لمحيي الموتى حتمًا، وباعثهم مرة أخرى.

إذًا فمثلما يحيي الله الأشجار اليابسة الميتة، والحشرات والهوام الغارقة في سبات الموت، فسيحييكم في موسم خريفكم مرة أخرى بعد موتكم ومواراتكم التراب ودفنكم بالأرض.

قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ**﴾ (سورة الْحَجّ: ٥/٢٢).

لقد ورد في آخر الآية، أنكم ترون الأرض وكأنها هامدة قاحلة عاجزة عن الإنبات والعطاء، وما إن نُنزل عليها الماء الغزير من السماء، حتى تبدأ بالحركة والاهتزاز، فينبت نباتها بقوة، وينمو زرعها بشكل سريع. أجل، ويخلق الله سبحانه زوجين من كل شيء، وترسم يد القدرة مشاهد من الجمال خلابة تبهج القلوب وتبهر الأنظار.

﴿**ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ (سورة الْحَجّ: ٦/٢٢)؛ فجميع ما ترونه حقّ لأنه من الله تعالى، هو الذي سيحيي الموتى وهو على كل شيء قدير، يكشف لكم قدرته من خلال تجليات خلقه، ومن خلال تدبيره لآلاف الوقائع والأحداث التي تحيط بكم.

﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ (سورة الْحَجّ: ٧/٢٢)؛ لا ريب أن كل هذه الآيات تشير إلى قيام الساعة، وتؤكد على أن الله ﷻ سيبعث كل مَن في القبور مرة أخرى ويحشرهم من جديد.

ومما هو واضح في كل هذه الآيات، أن الله تعالى أثبت البعث من خلال الأحداث التي تقع في الأرض التي نعيش عليها؛ فكما أنه تعالى يحيي البذور وينبتها في ربيع جديد بعد تعفّنها وموتها تحت الأرض، فكذلك سيحيي الإنسانَ الذي يتآكل جسده في القبر ويتبعثر؛ في يوم البعث والنشور الذي هو ربيعه الثاني.

هذا هو أسلوب القرآن المبهر في بسط القضايا وإقناع العقول، كان المخاطَبُ فيلسوفًا أو راعي غنم، فليس ثمة أسلوب يفوق أسلوبه في العرض والإقناع والتأثير، لقد حسم القرآن القضية وبتّ فيها، وما كُتِب أو قيل حول الموضوع من طرفنا نحن البشر، إنما هو شرح أو تفصيل لما ذكره القرآن العظيم لا غير.

وفي السياق نفسه نجد أن القرآن المجيد عندما يريد إثبات الحشر الأعظم عبر دلائل أنفسية، يحيل أنظارنا إلى عالم الذرة ويفتق أذهاننا بقوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ (سورة الأَعْرَافِ: ٢٩/٧)؛ فكما أنه تعالى خلقكم أوّل مرة من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة، فكذلك سيجمعكم ويعيد ذراتكم إلى أصلها مرة أخرى وسيخلقكم من جديد.

ويقول جل شأنه: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ۞ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۞ قُلْ

﴿يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ (سورة يس: ٣٦/٧٧-٧٩)؛ إن كفرة القرون الأولى وبقايا كفرة هذا القرن، ينطقون باللغة نفسها وبالأسلوب نفسه فيقولون: "مَن يستطيع جمع هذه العظام، ونفخ الحياة فيها بعد أن صارت رمادًا؟" فيجيبهم القرآن قائلًا: "قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ".

ويقول ﷻ: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ﴾ (سورة يس: ٣٦/٨٠)؛ إن رب العزة هو مَن أخرج مِن الشجر الأخضر الرطب نارًا، بينما تقرر القاعدة عدم اجتماع النقيضين، ولكن صاحب القدرة الأزلية الأبدية جمع هنا بين النقيضين وبكل سهولة، ومن المعروف لدى العرب أن شجر المَرخ والعَفَار الذي يتقطر منه الماء سريع الوَرْي والاتّقاد؛ إذا قُدحتْ أحد أعواده بالآخر -وهو يتقطر ماء- تولّدت النار من بينهما.

وهكذا، فإن الله الذي تجلت عظمته في هذا الشجر، قادر على جمع العظام البالية وبعث الحياة فيها من جديد، وبالتالي على إحياء الإنسان وحشره لحياة ثانية مرة أخرى.

سار القرآن الكريم على الأسلوب نفسه في إثبات البعث والنشور وهو يستعرض آيات الكون الصغير الذي يتألف من أصغر أجزاء الذرة وجزيئاتها، قال تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا

﴿يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ (سورة الْحَجّ: ٥/٢٢)؛ أيْ، إن كنتم في ريب من الحشر والنشور، فانظروا إلى هذا الحدث الذي يقع في ماهيتكم، وتأملوا هذا الدليل الأنفسي الآتي:

إن الله ﷻ خلقكم بادئ الأمر من تراب، وصنع خميرة ماهيتكم من بعض العناصر المبثوثة في الأرض، وخلط هذه العناصر ببعضها مكوّنًا منها حساء بروتينيًّا، ثم نفخ الروح فيها لتتحول إلى قطرة من ماء مهين، ثم إلى علقة فمضغة مخلقة وغير مخلقة، وعندما أصبحتم مضغة خلقكم أو أماتكم؛ أي سقط بعضكم من بطن أمه قبل استكمال مدة الحمل، واستكمل بعضكم الآخر مسيرته وأخذ صورة تناسب بذرة ماهيته ونال شرف التكريم بسرّ "أحسن تقويم".

أجل، يقرّ الله تبارك وتعالى في الأرحام ما يشاء إلى أجلٍ مسمى؛ فأحيانًا يَسقط الجنينُ وهو في شهره الثالث أو الرابع، أو يسير إلى الحياة فيولد في الشهر السابع، أو يستكمل نموه حتى الشهر التاسع، وأنتم يا أيها الذين خلقناكم أطفالًا أبرياءَ أنقياءَ، تسلكون بعد ذلك دربَ الحياة أملًا في الوصول إلى الغاية التي خُلقتم من أجلها، ولكن منكم مَن يُتَوفّى مبكرًا، ومنكم مَن تمتد به الأيام ويُردّ إلى أرذل العمر؛ فتضعف أرجلكم، وتصاب ظهوركم، وتنحني قاماتكم، وتشتعل رؤوسكم شيبًا، وتنهزمون أمام الشيخوخة متقهقرين، ها قد باتت حياتكم كلها معاناة، لكي تعلموا أنكم لا تساوُون شيئًا مهما علا شأنكم.. إذ تبدؤون الحياة أطفالًا عاجزين، وتفارقونها أطفالًا عاجزين، ولكن بِلحيةٍ هذه المرة.

يقول الله ﷻ: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ۞ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ۞ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ۞ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى ۞ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ (سورة القِيامَة: ٣٦/٧٥-٤٠)؛ إن الله الذي تنقّل بكم في منازل من الخلق شتى حتى سوّاكم على هذه الهيئة الرائعة التي أنتم عليها، ألا يستطيع أن يبعثكم من جديد؟

من خلال ما سبق، يتضح أن القرآن المجيد قد أثبت البعث بعد الموت بأسلوب فريد ينفذ إلى القلوب ويقنع العقول بسهولة عجيبة، وإن ثلث القرآن -تقريبًا- يعالج هذه الحقيقة الخالدة، وما الشواهد التي ذكرناها، إلا نماذج لدفع القارئ إلى التدبر والتأمل فقط، وما سنقوله لاحقًا تفصيل لمرامي هذه الآيات.

إن البشرية وأفكارها وأحاسيسها ومشاعرها ونواياها وأعمالها وتصرفاتها تجري في هذه الدنيا جريان السيل، وتصب في النهاية في مصب يناسب طبيعة المجرى وماهيته، ألا ترى أننا في هذه الحياة لا نُوفَّى ما نستحقه من مكافأة أو عقوبة! فكم من ظالم بزّ الفراعنة بظلمه مات وغادر الحياة دون أن يلقى أي عقاب.. مات دون أن يؤلمه ضرس أو يشتكي من صداع.. غادر الدنيا دون أن يعاني من وجع في الظهر أو المفاصل، وكأنه الرابح المنتصر رغم ما اجترحه من مظالم وآثام! وفي المقابل هناك مَن تجرع آلاف المصائب، وتعرض لآلاف البلايا ولم تفارقه مدى حياته، غادر الدنيا مظلومًا منكوبًا.

إذا كان للظالم خطط ومشاريع ينفّذها في هذه الدنيا، فإن للمظلوم -كذلك- أفكارًا ونوايا ينفذها، ولكنها مختلفة -بالتأكيد- تمام الاختلاف

عن أفكار الظالم، ولا شك أن هذين المجريين المتناقضين كلّ التناقض، والمتدفقَين كالشلال باتجاهين مختلفين، سوف يصبّان في الآخرة في مصبّهما، ويقفان في حضرة رب العزة من أجل الحساب عن الأحوال والأفعال التي قاما بها في الحياة الدنيا الفانية، ولكن في نهاية الحساب، سيجد المظلوم نفسه في الجنة التي آمن بها وصدق بوجودها في حياته الدنيا، في حين سيجد الظالم نفسه ملقى في نارٍ لم يخطر بباله مرة أنه سيُقذف فيها كما يقذف الحطب في النار.

أجل، إن تمييز الأخيار عن الأشرار الذي لم يتحقق في هذه الدنيا، سيحققه المَلِك العدل الديّان في دار البقاء لا محالة، وساعتها سيقول لحشود الظالمين: ﴿**وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ**﴾ (سورة يس: ٣٦/٥٩).

أجل، إن لم يتم مكافأة الطيب ومعاقبة الخبيث من الناس والتمييزُ بينهما في هذه الدنيا، فذلك مؤجل إلى حين، وها نحن نرى أن التمييز قد تم بين الكائنات الأخرى، فتميَّزَ الخبيثُ من الطيب، والقبيحُ من الحسن، والناقص من الكامل.. فهل يُعقل أن يُستثنى الإنسان، ذلك الكائن الذي خُلق ليكون أنموذجًا فذًّا وجوهرةً فريدة في الكون، هل يعقل أن يستثنى من هذه القاعدة؟! كلا، وبما أن الفَرْز لم يتحقق هنا، فإنه سيتحقق في عالم آخر لا محالة.

تُنثر البذور في باطن الأرض، وعندما تَبلى وتموت تَنبت منها حياة جديدة؛ حيث تنمو شجرةٌ منها، وتعلو نحو السماء، تزدان بالأوراق الخضر والفواكه اللذيذة، وحين يحلّ الشتاء، تُلقي هذه الشجرة كل ما عليها من ثمار وأوراق وتتحوّل إلى شجرة جرداء يابسة عديمة الحياة،

ولكـن في مطلـع ربيـع جديد، تتزيـن بحليّها مرة أخرى، وتعرض جمالها وبهاءهـا للأنظـار.. وكذلك الهوامّ والحشـرات تتعرض إلى حالة شـبيهة بالموت بعد اسـتغراقها في نوم عميق طيلة الشـتاء، ثم يتم بعثها ونشـرها من جديد في مطلـع ربيـع ثانٍ، والسـؤال: هل يعقل أن يُسـتثنى الإنسـان من هذه القاعدة التي يخضـع لها كل موجود؟!

لقـد مُنح الإنسـان كذلـك ربيعًا، وشـتاءً، ثـم ربيعًا ثانيًـا، لأنه تكوّن هو أيضًا من النواة، ثم نما كالشـجرة، وأثمر فكرًا وسـرًّا وخفيًّا وأخفى.. ثـم تحـوّل بعد ذلـك إلى كائن لا يُسـمن ولا يغني من جـوع.. ثم وُضـع فـي التـراب مـرة أخرى مثل البـذرة تمامًا.. ثـم راح ينتظر ربيعـه الثاني.. وعندما تأتي الساعة ويُنفخ في الصور، فسيتحقق ذلك الانبعاث من جديد لا محالة.

حكمة تحيط بالكون

كلنا نشاهد حكمة تحيط بالكون بأكمله، فجميع الكائنات خُلقت لمصلحة أو غاية، ولكن الماديين أنكروا هذه الغاية والحكمة في الكون، وادعوا اللامعقولية في سنن الله تعالى وقوانينه الكونية.

إن الله تعالى لا تحكمه الأسباب، بل هو من يحكم الأسباب، لا أحد يُجبره على فعلِ شيء، وهو يخلق ما يشاء ويُوجد، وكل شيء ينصاع لأمره ويخضع لمشيئته تبارك وتعالى، يقول عز من قائل: ﴿**وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ**﴾ (سورة الإنْسَانِ: ٧٦/٣٠)؛ أيْ، لا يسعكم أن تريدوا شيئًا إلا بالشكل الذي يريده الله رب العالمين.

الإنسان لا يريد إلا ما أراده الله له، لأنه سبحانه هو الحاكم المطلق، ولكنه تعالى يُوجِد في كل شيء خلَقه حكمةً، فلو تأمل الإنسان قليلًا، لأدرك ما تحتويه نفسه من معاني الحكمة وألوان الفوائد بكل وضوح، لو تأمل في أعضاء جسمه المتناسقة والمنتظمة فيما بينها ودرسها واحدة واحدة، فسيدرك أن كل شيء في جسمه -حتى الذرة- لم يُخلق عبثًا.

لقد ازدان الكون -ذلك الإنسان الأكبر- بحِكَم شتى، لا مكان للعبثية واللامعنى في أي كائن مثقال جناح بعوضة، حتى الورقة على غصن الشجرة التي لا تتحرك والتي قد تبدو بلا فائدة، لا ندري كم تُخفي في ثناياها من الفوائد، إن الله سبحانه خلق الكائنات بهذه الصورة، وأظهر لنا عبرها تجليات اسمه "الحكيم".

أجل، هناك حِكَم كثيرة وفوائد شتى تحيط بالكائنات كلها، بدءًا من العالم الكبير (الكون) إلى العالم الصغير (الإنسان) إلى العالم الأصغر (الذرة)، فلا يُعقَل لكائن -مثل الإنسان- قد كُرِّم بين الكائنات كلها أفضل تكريم، وخُلق بين المخلوقات في أحسن تقويم، وزُوِّد في هذه الدنيا بآلاف الحِكم صورة وشكلًا، أن يأتي إلى الدنيا لبضعة أيام، ثم يموت ويندثر تحت التراب دون أن يُبعَث مرة أخرى.

إذا كانت هذه الدنيا عاجزة عن إشباع رغبات الإنسان المادية وحاجياته الجسدية، فكيف لها أن تلبي حاجيات ملكاته الروحية ولطائفه المعنوية التي تمتد مطالبها حتى أقاصي الكون، وبالتالي أنّى لها أن تُشبِع نزوع الإنسان إلى الخلود مثلًا؟ وما دمنا قد سلّمنا من البداية أن الأحاسيس في الإنسان لم تُخلق عبثًا، وأنه يستحيل للإنسان أن يجد في هذه الدنيا ما يلبي نزوعه إلى البقاء والخلود، فلا بد أن يكون هناك عالم آخر يستجيب لهذا النزوع المغروس في فطرته لحكمة ربانية بالغة.

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۞ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ (سورة الْمُؤْمِنُونَ: ٢٣/١١٥-١١٦)؛ هل ظَنَنْتُم أنكم خُلِقْتُمْ عبثًا؟ وأنكم لن تُرجَعوا إلى الله؟ إن الله تبارك

وتعالى منزَّهٌ ومقدَّسٌ عن مثل هذا العبث. أجل، إن الله الذي أسكنكم الأرضَ وجعلكم أشرفَ خلْقِهِ، ثم لبّى كل حاجاتكم الجسدية والمادية، بل ولم يهمل حاجة أصغر مخلوقاته وفق رحمته الكونية الشاملة.. لا بد أن يُشبِع تَوْق الإنسان إلى الخلود ونزوعه إلى البقاء، وأن يفتح له عالمًا أبديًا لا نهائيًا.

قدم على سيد الأنبياء ﷺ مجموعة من الأسرى، فرأى ﷺ امرأة تهرول يمينًا ويسارًا تبحث عن ولدها، إذ كانت تضم إلى صدرها كل ولد وصلت إليه يدها بحنان بالغ ثم تتركه، وما إن وجدتْ ولدها حتى ضمتْه إلى صدرها بحرقة.. تقبّله وتشمّه تارة، وتضمه إليها تارة أخرى، فتأثر رسول الله ﷺ من هذا المشهد، فبكى، ثم أشار بإصبعه المباركة إلى تلك المرأة، وقال لمن حوله: "**أَتَرَوْنَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ؟**"، قال الصحابة الكرام رضي الله عنهم: نعم يا رسول الله! قال ﷺ: "**أَتَرَوْنَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟**" فأجاب الصحابة الكرام: لا واللهِ يا رسول الله! فقال رسول الله ﷺ: "**لَلّٰهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا**"(١٤).

ما أريد قوله بهذا المثال؛ هو أن صاحب الرحمة اللانهائية الذي لا يرضى بإلقاء عبده في النار، هل يُعقَل أن يرمي به في ظلمات العدم دون إحيائه من جديد؟ أليس ذلك مناقضًا لعدله ورحمانيته ورحيميته وشفقته ورأفته؟ أجل، حتى جهنم الأبدية -قياسًا بالعدم المطلق- لها قيمة كقيمة الجنة في روح الإنسان، إن العَدَم عذاب رهيب لا يمكن وصفه، يجعل روح الإنسان التواقة إلى الخلود تصرخ مرعوبة، وترى في جهنم رحمة لها، وتعتبر عذابها أخفّ من عذاب العدمية المطلقة.

(١٤) صحيح البخاري، الأدب، ١٨؛ صحيح مسلم، التوبة، ٢٢.

لقد وُضع لكل بضاعة في هذه الدنيا ميزان لتحديد قيمتها، ولكن لم يوضع أي ميزان لوزن نتاج العقل، والقلب، والحس، والروح؛ فليس ثمة ميزان يقيّم ما يَنتُج عن العقل من أفكار، بينما هناك موازين كثيرة تزن وتقيّم المآكل والمشارب.. ويتم تحديد قيمة هذه الأشياء حسب أسعار العملة المحلية والدولية، كما تُستَورد وتُصَدَّر بناءً عليها، ويمكننا أن نحدد قيمة قطعة من الأرض وفق هذه الأسعار كذلك.

ولكن لا يوجد في هذه الدنيا ميزان يمكنه أن يثمّن عقلًا فذًّا أو ذكاءً فريدًا أو كياسةً عظمى.. لذلك لم ينعم -مثلًا- "شكسبير" ولا "فيكتور هوجو" اللذان كانا يتمتعان بذكاء خارق بأي مكافأة مقابل ذلك الذكاء في هذه الدنيا، هذا من الجانب المادي، والآن دَعونا نحلل الموضوع بعمق أكثر، ونتأمل في فطنة نبي من الأنبياء، لنفكر -على سبيل المثال- بالثمار التي نتجت عن عقل الرسول الأعظم ﷺ وقلبه وأحاسيسه اللامتناهية، كذلك دعونا نجمع الأحاسيس الوجدانية لكافة الأنبياء عليهم السلام في مكان واحد، فهل ثمة ميزان في هذه الدنيا يمكنه أن يقيّم تلك الأحاسيس يا ترى؟ إذًا فإن الحكمة تقتضي أن يأتي يوم يقام فيه ميزان يستوعب كل تلك المشاعر السامية ويقيّمها، وذلك يوم الآخرة.

يقول المولى ﷻ: ﴿**وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ**﴾ (سورة الأَنْبِيَاءِ: ٢١/٤٧).

توضح هذه الآية الكريمة، أنْ ليس في هذه الدنيا ميزان يستطيع أن يزن خفايا لدنّيات الإنسان وبواطنه الجوانية، كما لا نستطيع أن نزن ثمرة

إحساس وجداني يزداد تألقًا مع كل إبحارة نحو أعماق القلب، وبالتالي فإننا لا نعرف ميزانًا يقدر على وزن أحاسيس سامية أخرى مكنونة في قرارة الإنسان، كالأحاسيس التي تحثه على إشاحة وجهه عن الدنيا وما فيها، وعدم الرضا بشيء سوى الله سبحانه والقرب منه؛ بل هؤلاء الذين تفيض قلوبهم بهذه المشاعر الجياشة، يتعذر عليهم في أغلب الأحيان تبيّنُها ووصفُها وتعريفها.. إذًا فالحكمة تقتضي يومًا يقام فيه ميزان لكي يزن كل هذه المواجيد الدقيقة دون أن يغادر صغيرة أو كبيرة، وبالتالي فميزان الدنيا أُقِيمَ لكي يَزِنَ أعضاء الإنسان الخارجية، ولم يوضع ميزان يقيّم مواجيده القلبية التي لا يمكن أن تضاهيها صورته الخارجية سموًّا وبهاء وإشراقًا، وإن ذلك الميزان الدقيق سوف يقام في دار البقاء لا محالة.

يقول الله ﷻ: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ**﴾ (سورة ق: ١٦/٥٠)؛ أيْ، نحن خَلقنا الإنسان، ونعلم كل الهواجس والوساوس والمساوئ التي تدور في خلده، ولكن دعونا نعالج الآية من الناحية المقابلة: "نحن خلقنا الإنسان ونعلم ما يموج في أعماقه من مشاعر سامية ومواجيد رفيعة".

مما لا ريب فيه أن الله ﷻ سيبعث الإنسانَ الذي عشّش الشرُّ في باطنه، وضاق أفقه، وتقزّمت رؤيته، وأصابه الجفاف والتسوس والعقم، فبات بلا قلب ولا روح، وفقد قابلية العطاء والإثمار.. سيبعثه حطبًا يابسًا هناك، وبالمقابل، هناك عظماء لا تبرز عظمتهم في ملابسهم البالية المتواضعة، بينما قطرة من قطراتهم تستوعب بحارًا هائجة مائجة، فالله ﷻ يعلم هؤلاء كذلك، ويعلم ما يموج في دواخلهم، إنه تعالى سيضع الميزان من أجل

هؤلاء العظماء، ويقيّم مستواهم وفق سمو أرواحهم وعمقها، ويجزل لهم العطاء ويجزيهم خير الجزاء.

فعلى فرض المستحيل، لو لم يكن هناك من موجِب للبعث وإقامة محكمة كبرى في عالم آخر سوى أن توزن أعمال هذا الإنسان المتوَّج بسر "أحسن تقويم" وتُعرَف قيمته الحقيقية، لكفى، علمًا بأنه لا يجب على الله شيء، ولا يُلزمه شيء، ولا يضطره شيء على فعل شيء، ولكن انطلاقًا من تجليات اسمه "الحكيم"، واستشهادًا بالمنح الواردة على عباده من هذا الباب نخلص إلى أن البعث حقيقة لا شبهة عليها.

إن لله حاكمية عظيمة ذات حِكم ومقاصد كبرى، هذه الحاكمية تبدأُ من عالم الذرّات إلى أن تَصِلَ إلى أكبر الأنظمةِ وأعظمِ المجرّات، والشاهد على هذه الحاكمية، هو مُهْره ﷻ وختمه المطبوع على هذه العوالم كلها؛ حيث نرى في عالم الذرات، وعالم الإنسان، والكون الكبير، هذا المُهْر الإلهي الذي يؤكد عظمته وقدرته تبارك وتعالى، ثم إن هذه الحاكمية من العزة والعظمة بحيث لا ترضى بتدخل أحد سواها، ابتداء من أصغر دائرة في الخلق، ووصولًا إلى أكبر دائرة.

إنه سبحانه وضع ميزانًا فريدًا في الكون، وهو يدبّر شؤون الخلق بقانون ندرك وجوده ولكننا نجهل حقيقته، وإن القوانين التي أسميناها نحن بأنفسنا، ليست كافية لتفسير الأحداث التي تقع في الكون، فمثلًا، تفسير التوازن القائم بين الأجرام بقانون الجاذبية والدافعية، لا يكفي لفهم حقيقة ما يقع، ولكننا مضطرون للاكتفاء بهذا القدر من التفسير، لأننا لا

نملـك معرفة أخـرى تتجاوز بنا حدود ما نعرفه حاليًا، والذي يرغمنا على الانصياع لهذا التفسير هو فاعليةُ ذلك القانون في كل مكان، لكن الفاعلية دليل على قدرة وعظمة واضـع ذلك القانون فحسب، وليست تفسيرًا وافيًا لما يحدث، فالعلم يصف لنا الوقائـع فقط، ولا يجيب على سؤال "لماذا؟" إجابةً كافيةً، ومن ثم حتى لو عجزنا عن الرد على سؤال "لماذا؟"، فهذا لا ينفي وجود حكمة في كل شـيء، كل ما حدث في الكون حتى اليوم، وما يحدث الآن، وما سيحدث لاحقًا، يعبّر عن حكمة بالغة الوضوح.

وكذلـك ثمـة غاية وحكمة في خلق الإنسـان.. الإنسـان الذي يحمل آمـالًا تمتـد نحو الأبـد، والذي لا تطمئن نفسـه إلا بالخلـود والعيش في كنف الذات السرمدية سبحانه، والذي ينادي بكل جوارحه "الأبد! الأبد!"، ويتـوق إلـى جمال الله سـبحانه وإلى الجنة في كل لحظـة.. وإن أصحاب الأرواح المضيئة يستشعرون هذه الغاية وهذه الحكمة في أعماق وجدانهم لا محالة.

وردتْ فـي كتب الحديث والسـيرة رواياتٌ عدةٌ فـي "الحنفاء" الذين هجروا عبادة الأوثان واختاروا أن يعبدوا الله فقط، ودَعَوا إلى الله وتوحيدِه والإيمـانِ باليوم الآخر قبل بعثـة النبي ﷺ في ذلك العصر الجاهلي، منهم زيدُ بن عمرو بن نُفيل، أبو الصحابي الجليل سيدنا سعيد بن زيد ﷺ وابنُ عمّ سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ وعمُّه من قِبل جدته في نفس الوقت، يقول عامـرُ بـنُ ربيعة العدوي: "لقيـتُ زيدَ بن عمرو بن نفيـل، وهو خارجٌ من مكة يريد حراء يصلي فيه، وإذا هو قد كان بينه وبين قومه سـوءٌ في صدر النهار فيما أظهر من خلافهم واعتزال آلهتهم، وما كان يعبد آباؤهم، فقال:

"إني خالفتُ قومي واتّبعتُ ملة إبراهيم وإسماعيل وما كانا يعبدان، وكانا يصليان إلى هذه القبلة، وأنا أنتظر نبيًّا من بني إسماعيل يُبعث، ولا أراني أدركه، وأنا أومن به وأصدقه، وأشهد أنه نبي، وإن طالت بك حياة فأقرئه مني السلام" ، قال عامر: فلما أخبرتُ النبيَّ ﷺ بخبره، ردّ ﷺ، وترحَّم عليه، وقال: "**رَأَيْتُهُ فِي الْجَنَّةِ يَسْحَبُ ذُيُولا**"(١٥)

كان زيد بن عمرو يقول: "اللهم لو أني أعلم أحبَّ الوجوه إليك لعبدتُك به، ولكني لا أعلمه"، ثم يسجد على راحته(١٦).

إن رسول الله ﷺ لقي زيدَ بن عمرو في مكة قبل البعثة، فدُعي زيدٌ إلى سفرة فأبى أن يأكل منها وقال: "إني لاآكل مما ذُبح على النُّصب"، ونرى ابنَه الصحابي الجليل سعيد بن زيد يسأل رسولَ الله ﷺ قائلًا: "يا رسول الله، إن أبي كان كما رأيتَ وبلغك، ولو أدرككَ لآمنَ بك واتَّبعك، فاستغفِرْ له"، قال رسول الله ﷺ: "**نَعَم، فَأَسْتَغْفِرُ لَهُ، فَإِنَّهُ يُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أُمَّةً وَاحِدَةً**"(١٧).

إن أصحاب البصيرة والقلوب الواعية، يستطيعون أن يهتدوا إلى الله ورسوله بالتأمل والتفكير في حقيقة الأشياء والأحداث المبثوثة في الحياة، فإن الذين يحللون الأشياء والحوادث في الكون ويتأملون فيها بعمق، يُبصرون ختْم الحق ﷻ عليها، ثم يصلون بعد الإبحار في التفكّر الآفاقي والأنفسي إلى الحكم الآتي:

---

(١٥) الفاكهي: **أخبار مكة**، ٥٣/٤.

(١٦) **سيرة ابن هشام**، ٢٢٦/١.

(١٧) **مسند الإمام أحمد**، ٢٩٦/٢.

إن الـذي لـم يتركني مهمَلًا في هـذه الدنيا، لن يتركني بعد نزولي إلى القبر أيضًا، وإنه كما يبعث النباتات في فصل الربيـع، فسيحيي ذراتي التي أضحت نواة مرة أخرى، ثم يقيم محكمة كبرى للحساب.

الكريم الرحيم وضرورة الآخرة

ثمة رعاية واسعة وعناية فريدة تشمل أضعف المخلوقات وأعجزها في الكون.. إننا نشاهد أنّ أضعف الأحياء التي لا أيدي لها ولا أرجل، تجد بكل سهولة ما تتغذى عليه في هذا العالم.

وإذا ما استثنينا الإنسان -الذي كثيرًا ما يسيء استخدام إرادته فلا تتناغم مع النظام الكوني- سنرى بجلاء رعايةً فائقة تقدَّم في هذا الكون لأصغر المخلوقات وأعجزها وأضعفها.

أجل، إن استمرار الحياة في الخلية، وتغذية الجنين في الرحم بأحسن صورة، ثم تسخير الأم لخدمة الوليد وتوظيفها لتلبية أصغر حاجاته ببالغ الاهتمام، وإطعام الأسماك في قيعان البحار، والدُّودِ في بطون الفواكه بأفضل الطرق، وتأمين رزق الأشجار غير القادرة على التحرُّك، وتوفير رزق المرضى طريحي الفراش.. وغيرها من آلاف الأمثلة الملموسة واقعًا، تؤكد الفكرة التي ذكرناها قبل قليل.

أجل، ندرك من كل ذلك أن هناك ربًّا رحيمًا كريمًا يجزل العطاء للكائنات برمتها، وبما أن صاحب هذا الكرم والرحمة والإنعام هو الله ﷻ،

فسيكون عطاؤه وفيرًا، وإنعامه لخلقه متواصلًا غير مقطوع، أضف إلى ذلك أن هذا العطاء والإنعام يقتضي استمرار حياة الإنسان المستقبِل لهذا الكرم والإحسان، وبما أن الإنسان قد أُكرم هذا الإكرام الوافر والإنعام الواسع في دار الدنيا رغم ضعفه وعجزه ورغم كونه مهددًا بالفناء؛ فإن ذلك الكرم الممتد والرحمة الغامرة يقتضيان استمرار تلك المنح عليه دون انقطاع، بيد أن الإنسان يُلطَم في هذه الدنيا ألف لطمة مقابل حبةِ عنبٍ يأكلها، يتذوق دون أن يشبع، وهذا التذوق باللسان يعقبه أنين أليم في القلب، لأن الأشياء التي استمتع بها تغيب عنه فجأة دون وداع، مثل غياب الشباب والقوة والحيوية والحركة وآلاف النعم الأخرى، ومن ثم فالرحيم الذي أنعم على الإنسان وأجزل العطاء له، لن يقلب المحبةَ عداوةً، واللذةَ عذابًا، والنعمة نقمة بحصر مِنَنِه وإحساناته في هذه الدنيا. أجل، إذا لم تصطبغ تلك النعم بصبغة الخلود، فستتحول النعمة إلى نقمة، واللذة إلى عذاب، والمحبة إلى عداوة، إذًا لا بد من عالم أبدي سرمدي تدوم فيه هذه النعم وتلك المكرُمات.

شفقة شاملة تشير إلى الآخرة

إذا أمعنـا النظر في هذا الكون الشاسـع، نلحظ شـفقة شـاملة تتجلى في كل شـيء، الشـفقة هي الإحسـاس بالرأفة والرحمة والحنان، الشـفقة هي العطف على المظلوم، هي الشـعور بنشـيج الباكي والإحسـاس بأنينه والاهتمام بهمه، الشـفقة هي الإحسـاس بجرحِ الجريح ومرضِ المريضِ والسعيُ إلى مداواته، وإننا نرى آثار شفقةٍ ربانيةٍ تمتدُّ من أصغر الكائنات إلى أكبرها في هذا الوجود الشاسـع.

لـو جُرحـت يدكم، وشـرعتم في مداواتهـا، صدّقوني لـن يلتئم ذلك الجرح لولا شـفقة الله ورحمته، كثيرًا ما نرى جروحًا لا تلتئم، أليس ذلك مثيـرًا للتفكير؟ إذا كان هناك مرض يسـتدعي عمليـة جراحية خطيرة، فإن الأطبـاء قبـل أن يضعـوا المريض على طاولـة العمليـات، يجتمعون فيما بينهـم ويتشـاورون، ربما يقولـون حالَ وجود داء السـكري أو علة أخرى فـي المريـض: "إذا أجرينا العملية، يصعب التئـام جرحه".. وكم من أناس قاموا بإجراء عمليات جراحية ولم يلتئم جراحهم إلا بعد شـهور، وأحيانًا بعـد سـنوات.. أيْ، إن لـم يشـأ الله، فلن يلتئـم ذلك الجرح أبـدًا؛ فإما أن يؤدي الجرح هذا إلى ارتفاع نسبة السكر في الدم، أو إلى ظهور عطب في البنكرياس، وهذا -بطبيعة الحال- يسبب خللًا في توازن الأنسولين، ومن ثم يستمر الجرح على حاله زمنًا طويلًا بلا التئام.

فهل أدركتم الآن مدى أهمية الشفقة التي وهبها الله ﷻ الإنسان؟ لقد عالجت أخطر الجروح التي أصيب بها هذا الكائن، وفي زمن قصير.. إن الله ﷻ يرحمنا.. ولكن بماذا؟ بإمدادنا بأصغر الكائنات التي لا تُرى ولا تُشاهَد إلا بالمجهر.

وماذا عن الأطفال؟ إنها حالة تُرْبك الإنسان وتضعه في حيرة واندهاش.. فعناية الله ورحمته بهم لافتة، لأن المسألة تتطلب اهتمامًا خاصًّا بهؤلاء المولودين الصغار الذين يحتاجون إلى أنفع الأغذية وأكثرها نقاءً؛ لذا يغذّيهم اللهُ أولًا في رحم الأم، فيحوّل جدار الرحم إلى محيط يتغذى منه الجنين، حيث يزوّد جدار الرحم بشتى أنواع الأغذية، ثم يسخِّر الأم لخدمة هذا الجنين، إذ بعد الولادة يعدّ الله تعالى للمولود غذاءً جديدًا، وهو حليب الأم الذي يعتبر -بلا شك- من الضرورات الأولية للمولود.

أجل، فحليب الأم يؤثر على صحة الطفل تأثيرًا إيجابيًّا يصعب إيجاده في الأغذية الأخرى، فلو حلبتم ذلك الحليب ووضعتموه في وعاء آخر، فسيفقد حلاوته وفيتاميناته الأولى.. بل إنكم لو حلبتم الحليب من ضروع الأغنام والأبقار واحتفظتم به في الحاويات المعقّمة، ثم غذيّتم به العجول، لا يعني ذلك أنكم غذّيتموها بأفضل الطرق، وإذا ما قارنتم بين العجول التي تتغذى على حليب الأم مباشرة، والتي تقتات على حليب الحاويات؛ لرأيتم الفروق في النمو واضحة جليّة، إذًا من ذا الذي يُخرج الحليب من ثدي الأم كإكسير للحياة، ويغذي به الصغار المحتاجين أمسّ الحاجة إلى الشفقة؟ أليست هي شفقة الله اللانهائية؟ فلولا رحمة الله الواسعة الشاملة، لما تحققت تلك المحاسن والطيبات أبدًا.

أجـل، نشـاهد بوضوح -كوضوح الشـمس شـفقة عظيمة سـائدة في كل مـكان.. هـا هي المياه تتدفق لتلبي حاجـة النباتات.. أجل، إن الرحمة تلامـس رؤوس النباتـات أيضًا، فتقدم لها الهواء لتتنفّس عبر الأوراق التي هي بمثابة الأنف والفم للأشجار، ولا شك أن هذه النباتات إذا بقيت دون هواء، فسـتفقد رونقها وسـتتحول إلى أعوادٍ يابسـة ميتة، شـأنها في ذلك شـأن الإنسـان الذي يمـوت إذا مُنِـع عنـه الهواء، وإذا أنكرنا هذه الشـفقة التي تشـمل الكائنـات الحية جميعها في الكـون وتَجاهَلْناها، فلن تتجاوز تفسيراتنا -حينئذ- حدّ المنطق الجدلي مهما حاولنا.

والآن أدعوكـم إلـى التأمـل معًـا.. إن الله تعالـى الذي يتغمّد بشـفقته حتى المخلوقات التي تبدو بلا أهمية، هل من الممكن أن لا يُشـبِع توق الإنسـان إلـى البقـاء والخلـود ويحيطه بشـفقته؟ هـل يعقل بعـد أن غذّى الإنسـان بنعم شـتى ولطائف متنوعة في هذه الدنيا، أن يحكم عليه بالعدم الأبـدي، وأن يختـم حياته ووجودَه بحفرة القبر، وأن لا يقيم له البسـاتين السرمدية والجنات الأبدية، وأن لا يُكرمه بالنعم الأبدية؟ أفيعقل هذا؟!

إننـا ومن خلال جميـع آثار الشـفقة المتجليـة في الكون، نخلُص إلى حكمٍ مفاده هو أن الله ﷻ الذي شـملت آفاق شـفقته جميـع الموجودات؛ مـن الذرة إلـى المجرة، ومن الخلية إلى أضخم المخلوقات، لا شـك أنه سـيقيم الآخرة وسيحيي البشـرية من جديد، ومن ثم سيحلّي هذا الإنسان الـذي أغـدق عليـه بالنعم في هـذه الدنيا الفانيـة، بنعم أبديـة لا نهاية لها في الآخرة.

عزة وجلال يقتضيان الآخرة

إن الذي أغدق علينا النعم من أعلى رؤوسنا إلى أخمص أقدامنا، له العزة والجلال، فكما لم يشرك أحدًا في عطائه هذه النعم، لا يرضى كذلك أن يُشكَر غيرُه مقابل هذا الإنعام، فهو تعالى صاحب غيرة وجبروت على مَن ينكر نعمه ويجحدها.

هناك كثير من الناس، رغم تنعّمهم بآلاف النعم، يجحدون بها ويقدِّمون عباداتهم وعبوديتهم لغير الله سبحانه، فيُغمِضون أعينهم ويكفّون أنظارهم عن جميع النعم التي ما تكرّم الله بها إلا ليعرفوه فيعبدوه.. كذلك يَلقَى كثير من الكافرين والظالمين والطغاة والجبابرة حتفهم ويغادرون هذه الدنيا دون أي عقاب أو حساب.

لكنّ عزة الله وجلاله يقتضيان تأديب عديمي السلوك هؤلاء وعقابهم، إن لم يكن في هذه الدنيا ففي الآخرة؛ حيث يلقى الظالم عقابه، وينال المظلوم مكافأته. أجل، سيأتي يوم ينادَى فيه الشاكرون لله على أنعُمه، الشاكرون له من جنس النعمة التي مُنِحوها أنْ: ﴿**كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ**﴾ (سورة الْحَاقَّةِ: ٢٤/٦٩).

يقول تعالى في الحديث القدسي: "**أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ**"(١٨).

إن النفوس اليقظة الخاشعة التي تقوم بأعمال عميقة جليلة لا تخطر على قلب إنسان، ولا تسمعها الآذان، ولا تراها الأعين؛ فتغوص في أعماق ذاتها ثم تغوص، وتَفِيض بالمواجيد اللدنية، مبتعدة عن الغفلة أيما ابتعاد، مستشعرة رقابة الله عليها وحضورها بين يديه في كل حين.. تلك النفوس ستكون مكافأتها من جنس أعمالها، بل سيُقِرّ اللهُ أعينها بمفاجآت لم تكن تتوقعها.

فالذين انطلقوا يتأملون في حقيقة الأشياء وأسرار الأحداث، وقطعوا بأفكارهم مسافات ومسافات، لن تكون معاملتهم -بالتأكيد- مثل من قضى عمره في هذه الدنيا خِلوًا من أي تفكير.

(١٨) صحيح البخاري، بدء الخلق، ٨؛ صحيح مسلم، الإيمان ٣١٢.

سخاء يشير إلى الآخرة

لـو لـم يمنحنا الله ما نحتاج إليـه من نعم، ما اسـتطعنا الحصول على أيٍّ منها ولو اسـتعنّا بالكون كله، دخل أحد العارفين على هارون الرشـيد وسأله:

- يـا أميـر المؤمنين! لو ظمئتَ ظمأً شـديدًا، ومُنِعتَ هذه الكأس من الماء، أَكنتَ تتنازل عن نصف ملكك لتحصل عليها؟

فأجابه هارون الرشيد:

- نعم.

فقال العارف:

- وإنْ شـربتَ هذا الماء ومُنعـتَ إخراجه، هل كنتَ تهب ملكك كله مقابل إخراجه؟

فأجابه هارون الرشيد:

- نعم.

فقال العارف:

- إذًا كل ملكك وسلطانك لا يساوي إلا كأس ماء فحسب يا أمير المؤمنين.

أجل، نجد النعم مبثوثة جاهزة أمامنا، ابتداء من كأس الماء هذه ووصولًا إلى الهواء الذي نتنفّسه.

في كل فصل من فصول السنة، تُدِرّ علينا آلافُ الأنواع من الفواكه ألوانًا مختلفة من اللذائذ بلطف الله وإحسانه، من يدعي عكس ذلك؟ فإننا لا نملك قدرة على إنشاء بذرة، ناهيك عن إنشاء تلك الفواكه، تلك البذرة التي تضاهي الكون في دقة صنعتها، فإحسان الله وسخاؤه علينا مبسوط بجلاء أمام أعين الناظرين في هذه الدنيا، يا لحمق الإنسان الذي يبحث عن كرامات وينقب عن معجزات، وكل ما يقع من حوله آية محيرة من آيات الإعجاز!

ما أعظم سخاء الخالق على الإنسان! وها هما الشمس والقمر يعملان خادمين مطيعين لنا.. تُلاطف الشمس رؤوسنا من جانب، وتسعى من جانب آخر إلى إنضاج الفواكه والخضار وما نحتاجه من حبوب في الحياة، فلو كان هذا السخاء كله منحصرًا في دار الدنيا الفانية المؤقتة، لشعرنا بغصة وعذاب إثر تناولنا لكل نعمة كأننا نتجرّع كأسًا من السمّ، وذلك بسبب الموت الذي لا يبرح عقولنا لحظة، وقد يداهمنا بغتة دون سابق إنذار، فزوال النعمة ينبهنا إلى زوالها كليًا، وحرمانِنا من جميع النعم التي كنا نتقلب فيها.. زوالُ النعمة يحوّل التنعم بها ألمًا.. والأفظع من ذلك أنه يذكرنا بالعدم الأبدي الرهيب.

لكـن حاشـا لصاحب هذا السـخاء العظيم والكرم العميـم أن يحرمنا هذه النعم بعد أن أذاقنا حلاوتها.. بل، إنّ صاحب هذا السخاء التي تَفضّل علينا في هذه الدنيا الفانية بألوان من الإكرام والإنعام، سـيديمها علينا إلى الأبد ولا بد أنه يملك عالمًا حافلًا بخزائن من النعم الخالدة التي لا تنفد، فهـو هنـا أَتْحَفَنا بعيّنات منها أصولُها هناك، ولا بد أن إكرامه علينا سـيمتد فـي ذلـك العالم، نقطف مـن أصولها وننعم بهـا أبد الآبديـن، وإن ادعاء العكس، يشوّه تلك الصور، ويُبهِت رونقها، ويمرر مذاقَها، وذلك يتناقض مـع قداسة الذات الإلهية، ﷻ عن كل نقص وعيب.

جمال فان يستدعي جمالا باقيا

لنقف في موسم من مواسم الربيع ونستمع إلى تغاريد العصافير وخرير المياه، لنشاهد جمال الخضرة الزمردية الأخّاذة للأشجار والنباتات، ولنتابع شروق الشمس وغروبها، ولنستمتع بمنظر القمر ليلة البدر، ولنتأمَّل جميع محاسن الكون البديعة.

كل هذه المَشاهد الخلابة ومثيلاتها، ما هي إلا تجليات لجمال الله سبحانه وتعالى؛ إذ إنه تعالى يفرش أمام أنظارنا جمال ذاته العلية عبر هذه الصور المتناغمة المتناسقة، فنقف مبهورين مأخوذين بكل حواسنا من سمو هذا الجمال، إنه تعالى يريد أن نعرفه.. ونحن نسعى إلى معرفته.

ولكن الجميل المتعالي سبحانه، لو أسدل الستارَ علينا أثناء مشاهدتنا هذه المحاسن، وتركنا في دياجير الحرمان؛ لتحولت -عندئذ- النعمة إلى نقمة، والمحبة إلى مصيبة، والعقل إلى أداة عذاب ومعاناة.. حاشاه أن يفعل ﷻ ذلك ويستبدل الجمالَ بالقبح، أضف إلى أن الذي يجعل النعمة نعمة حقًّا، ويفتح للعقل باب التلذذ بها، إنما هو دوام تلك النعم، لذا فربنا العظيم سيفتح دارًا أخرى لكي يطلعنا على جماله الأبدي السرمدي،

ويبعثنا في تلك الدار، ويكشف لنا عن نعمه الخالدة وجماله البديع وكماله الفريد.

ثم إن تلك المحاسن والجماليات التي أبدعها جل شأنه لا تُعدّ ولا تُحصى.. وهذا يستدعي عالمًا أبديًّا تصبح فيه هذه المحاسن العابرة من هذه الدنيا الفانية خالدة أبدية. أجل، فكما انبهرنا بتجليات جماله المبثوثة في أرجاء هذه الدنيا، سننبهر يومًا بالنظر إلى جمال الذات المقدسة غارقين في نشوة ما بعدها نشوة: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ۞ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ (سورة القِيامَةِ: ٧٥/٢٢-٢٣).

التناغم البديع في الوجود

ثمة علاقة وثيقة بين الإنسان والأشياء.. وما هذه العلاقة إلا دليل على وحدة خالقها ووحدانيته.. فالذي خلق ما نراه وما نسمعه وما نتذوقه، هو نفسه مَن وهبنا حاسة البصر والسمع والتذوق.

والذي أوجد الكائنات المفتقرة إلى الشفقة، هو نفسه الذي وهب الإنسان حس الشفقة، هناك أحداث لا تُحَلّ إلا بالإرادة.. فالذي خلق هذه الأحداث هو عينه الذي زوّد الإنسان بالإرادة، ولا شك أن واهب هذه النعم التي لا تحصى، هو الواجب الوجود الذي منح الإنسانَ حاسةَ تذوق هذه النعم، فالذي وضع العين في الإنسان، هو مَن وضع الشمس كعدسة في عين السماء، لأن هناك تناسبًا وعلاقة وطيدة بين عين الإنسان والشمس.

فاكهة التفاح تحمل في ثناياها الفيتامينات المفيدة لجسم الإنسان.. حتى إن قشرتها الحاوية على السليلوز لا تخلو أيضًا من الفائدة؛ إذ تتخلص الأمعاءُ من الكسل بقشرة هذه الفاكهة حالَ تناولنا إياها، لأن الأمعاء لا تملك أنزيمات لتُذيب هذه القشرة وتهضمها، وهذه -بلا شك- عملية مفيدة لجسم الإنسان.

التفاحة مفيدة بفيتاميناتها، ومع توافرها على هذه الفيتامينات فهل كان الإنسان سيبدي رغبة في أكلها يا ترى إذا اشمأزَّ الفمُ منها ورفض تناولها؟ قد يتناولها مضطرًّا وبقدر محدود، كتناول دواء، وهذا يؤدي -بطبيعة الحال- إلى العزوف عن تناولها فيما بعد؛ مع أن جسمنا خُلق بشكل يحتاج إلى الفيتامينات الكامنة في تلك الفاكهة، ومن ثم علينا ألا ننسى أن الذي وهبنا تلك الفيتامينات التي اشتملت عليها التفاحة، أهدى إلى أفواهنا هدية أخرى وهو ذلك الطعم اللذيذ الذي احتوته التفاحة، حتى صرنا نستمتع بطعمهما ونلتهمها بشهية فضلًا عن استفادة جسمنا من فيتاميناتها، ولك أن تقيس سائر الفواكه على التفاح، وتطبّق القاعدة نفسها على كل نواحي الحياة وفضاءاتها.

لقد وضع الله ﷻ قانونًا فطريًّا لاستمرار نسل الإنسان، وبالأحرى لاستمرار أمم الخلق جميعها وعدم انقراضها، ولكنه تعالى وضع في قانون الفطرة هذا متعةً على اعتبارها أجرة مسبقة، فلو لم توضع تلك الأجرة مسبقًا، وحلَّ محلَّها شيءٌ يكرهه الإنسان، لما تحقق استمرار أيٍّ من نسل المخلوقات قط.

إن الذي وضع قانون استمرار النسل، هو عينه الذي وضع تلك الأجرة المسبقة.. وعندما وضع ذلك القانون، وضعه بشكل يتوافق مع الفطرة والخلقة، وهو سبحانه خالق الفطرة.

وهكذا، الباري عزّ وجلّ يغذينا بشتى نعمه المتوافقة ويزين بها موائدنا.. فإذا بعواصف تهبُّ عاتية لتدمر هذه الموائد التي أعدّت بعناية. أجل، تهبّ رياح الموت فتعفو علينا وعلى تلك المكرُمات، فهذا يخالف

الحكمة التي نراها في كل شيء، إذًا فالنعم التي وُهبتْ لنا هنا، ليست مؤقتة بالتأكيد، ولم تُبسَط بين أيدينا من أجل دنيا فانية.. إذ إن تناغمها معنا وتوافقها فيما بينها، ما هو إلا دليل على منحة خالدة أكبر ترتبط بها هذه النعم جميعها، وما اللذة المغروسة فيها هنا، إلا لتنبيهنا إلى عالم آخر، وإغرائنا بدار أخرى، وحثنا على العمل لكي نفوز بتلك الدار، إن النعم المبثوثة في هذه الدنيا عيّنات للنعم الأصلية التي ستُمنَح في الجنان الخالدة، وإنه لَمن الحمق أن نقر بوجود تناغم بين تلك النعم في هذه الدنيا، ثم نرفض صلتها وعلاقتها بالآخرة، لقد خلق الله تعالى هذه الدار وتلك الدار، وجعل بينهما رابطًا وثيقًا وحبلًا متينًا لا ينحلّ أبدًا.

ومن هنا، فإذا كان التناغم الجلي والتوازن الفريد والجمال الباهر وعيّنات النعم التي لا تعد ولا تحصى دليلًا على نسخها الأصلية في عالم آخر، فيمكننا أن نقرر أن المصائب والكوارث والملمات كذلك عيّنات لنسخها الأصلية في الآخرة، وهي تنتظر المستحقين لها بفارغ الصبر.

وعلى هذا الأساس كذلك، ففكرة الحساب والمحاسبة والحفظ والمحافظة الشائعة في هذه الدار دليلٌ قطعي على محاسبة أصلية تتم في دار أخرى بناء على الأعمال التي سُجّلت وحُفظت، ذلك يوم الخلود، يوم تبيضّ وجوه وتبتهج بسرور، وتسودّ وجوه أخرى وتتقلص بمرارة، ولنصغ إلى البيان الإلهي الذي يدفعنا إلى الخوف والرجاء مرة أخرى: ﴿**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ۞ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۞ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ۞ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ**﴾ (سورة القِيامَة: ٧٥/٢٢-٢٥).

إذًا كما توجد وشيجة قوية وصلة وثيقة بين حجرات المنزل الواحد، كذلك يوجد تناسب أكيد ورابط متين بين الدنيا والآخرة.

الحفيظية العجيبة

ثمة حفظ عجيب يسود الكون برمّته.. فماهية الإنسان وجوهره محفوظان في خلية منوية، وأدقُّ تفاصيل مزاجه وطبيعته ومستقبله محفوظة في كروموسوماتِهِ، وإذا غيّرتم عدد الكروموسومات في الإنسان، تغيرت ماهيته، ومن المعلوم أن جسم الإنسان وطبيعته وعالمه الداخلي، يتشكل وفق هذه الكروموسومات، ولو تحوّلت هذه الكروموسومات من ٤٦ إلى ٤٤ أو ٤٨، لَتحوّل الإنسان مخلوقًا آخر، إذًا إن أصغر الكائنات كمثْل الكروموسومات -وإنْ في إطار الأسباب- تتدخل في تحديد صورة الإنسان وماهيته، وهذا يعني أن الله سبحانه، منح هذه الكائنات الصغيرة سلطة الفعل، لكي تنسجم مع الأمور ويستقر النظام في تلك المساحة من الخلق، الأمر الذي يمكّننا من مشاهدة نظام رياضي دقيق في هذه الدائرة الحيوية.

الكائن الإنساني لا يندثر ولا يضيع هدرًا، هذا الكائن الذي ولد إنسانًا، لا يتحول إلى حيوان غدًا، وإلى نبات بعد غد، وإلى كائن آخر في يوم آخر. أجل، الإنسان -زبدة الكون وخلاصته- محفوظ في جرم صغير

لا يمكـن أن يُـرى إلا بالمجهر، إنه يولد إنسـانًا، ويعيش إنسـانًا، ويموت إنسانًا، ثم يُبعَث إنسانًا، ويحاسَب كذلك إنسانًا.

لقد ضُمِّنت شجرة الصنوبر الضخمة داخل بذرتها الصغيرة، وحُفظت قامتهـا السـامقة -التي سـتكون عليهـا في المسـتقبل- داخل هـذه البَذرة الصغيرة.

إن "سـير جيمـس جـان *(Sir James Jeans)*" (١٨٧٧-١٩٤٦م) أحـد الذيـن أسّسـوا علـم الفيزياء الذريـة، عندما يقول: "لا شـك أن خالق هذا الكـون رياضيٌّ قدير"، فإنه يشـير إلى المعادلات الرياضية التي تسـيّر هذا الكـون، ذلـك أن كل مخلـوق في هـذا الكون لا يحيد في سـيره وحركته واتجاهـه عـن المقاييـس الرياضيـة الكونية قيـدَ أنملة ولا أقـل من ذلك، فجميـع هذه العجائب في الحقيقة هي تجليات لاسماء الله "الخالق البارئ المصـوِّر" و"العليم الحكيم"، ولكن "جيمس جـان" وأمثاله من المفكرين يُدخِلـون أسـماء أخرى أيضًا تحت ظل هذه الأسـماء، ونحن أهل السـنة والجماعـة نوافـق على هذا الـرأي إلى حدٍّ ما، وذلك أنـه قد تغلب أحيانًا سـيادة اسم من الأسـماء الحسنى في مساحة ما، فتندرج الأسماء الأخرى تحته وتواصل فعلها في ظله، وعليه؛ فإذا نظرنا إلى الأشياء والأحداث من زاوية التقدير والقياس وانتظام الحسابات الرياضية وانعدام ما يزعج العين مـن خلـل أو ارتباك في الكون، فلا بد أن نلمح -قبل كل شـيء- أسـماء الله المذكورة متجلية أمام ناظريْنا بكل عظمتها وجلالها، وأن الله يقدّر كل شـيء وأنه لا يعزب عن علمه وقدرته وحكمته وتقديره شـيءٌ في الأرض ولا في السماء.

لقد ذكرنا أن جميع الأشياء محفوظة، وكذلك النباتات كلها محفوظة بهويتها الأصلية في كروموسوماتها. أجل، كما يُحفظ الإنسانُ في النطفة، وتُحفظ الشجرةُ في البذرة، كذلك تحفظ جميع الأصوات في الفضاء وداخل عناصر متنوعة، وربما يأتي اليوم الذي تُبتَكر فيه آلات نسمع من خلالها كل هذه الأصوات، فكما تسجَّل الأصوات على الشريط، كذلك تُسجَّل أصواتنا وأفعالنا من قِبَل كائنات نمرّ من عندها أو نعيش بينها لتشهد لنا أو علينا في يوم من الأيام.

ينقل أحد العلماء تجربة عجيبة مرت عليه، وهي كالتالي: وقعت جريمة قتل وسط مجموعة من الأشجار في إحدى المناطق، فجاؤوا بالمتهمين إلى موقع الجريمة للتحقيق معهم، ولكنهم لاحظوا شيئًا غريبًا في سلوك الأشجار؛ حيث كانت هادئة عندما جيء بمتهمين لا صلة لهم بالجريمة، ولكن ما إن جاؤوا بالمجرم الحقيقي حتى بدأت الأشجار تضطرب اضطرابًا غير عادي، وعندما تعمقوا في التحقيق مع الرجل اعترف بأنه هو القاتل فعلًا، فكأن الأشجار التقطت الذبذبات الصادرة عن القاتل أثناء ارتكابه للجريمة وحفظتها، ومن ثم فضحته بطريقتها الخاصة.

وبعد أن أشرنا علميًّا إلى أن أصغر حركة في الكون يتم تسجيلها وحفظها، فلنتناول الموضوع من جهة الإنسان، إن "الحفيظ" ﷻ الذي حفظ الإنسانَ في النطفة، والشجرةَ في البذرة، والدجاجةَ تحت قشرة بيضتها.. هل يترك الإنسانَ -محورَ الحراك الكوني وخليفة الأرض وسلطانها- سدىً بعد مماته؟ كلا، بل سيبعثه في عالم آخر كما يبعث البذرة المنثورة في أحشاء التراب، ويتوّجه بحياة كريمة جميلة تناسب مكانته.

إن الله تعالى قد وعَد وتوعّد في القرآن الكريم بحشر تبتهج فيه وجوه، وتبكي فيه أخرى، فجاء بعبارات تبشيرية من جانب، وترهيبية من جانب آخر، إنه تعالى يَعِد، وهو قادر على الوفاء بوعده، إذ إن نقض الوعد لا يليق بذاته المقدسة، فهو منزَّهٌ عن أي نقصان ولا سيما إخلاف الوعد.

القدرة الخارقة تقتضي الآخرة

إننا نرى في جميع الكون، في باطن الأشياء والأحداث، وفي ظاهرها، قدرة الله الباهرة بجلاء، كما نرى انتظامًا رياضيًّا محكمًا يمتد من عالم الذرات إلى عالم المجرات، مثلًا، إذا ألقينا نظرة إلى الذرة وحللنا طريقة عملها، بدءًا من النواة التي تشكل الجزء المركزي منها، ووصولًا إلى البروتونات والإلكترونات التي تتحرك داخل النواة، سنكتشف أن ثمة نظامًا رياضيًّا مذهلًا داخل الذرة، وعلى الرغم من أن الذرات كائنات شبه مستقلّة، إلا أنها تتجمع لتكوّن مستعمرات، ومن هذه المستعمرات تتشكّل الجزيئات.

وإذا درسنا المنظومة الشمسيّة من زاوية الإشعاع وحقل جاذبية الشمس فسنرى أن ثمة تناسبًا قويًّا بين الشمس وكواكبها، ويبلغ هذا التناسب حدًّا لا يمكن تجاهله، إذ في كثير من الأحيان نلمح تأثير التقلبات الخاصة التي تحصل في الشمس على سطح الأرض وتضاريسها، وهذا التأثير يتناسب طرديًّا مع حقل جاذبية الشمس وحالة الإشعاع فيها.

يقول "فورسد *(Forsed)*": "فكما يوجد انسجام بين خليةٍ وخلية أخرى، فكذلك يوجد انسجام وتناغم بين أجزاء الكون كله".

مثَل الخلية كمثَل الحكومة شبه المستقلة، تتمتع فيها القيادة باستقلال ذاتي، وتعمل على الحفاظ على بنيتها؛ حيث تقوم بإرسال حاجاتها إلى المركز المسؤول عنها، ثم يقوم هذا المركز بنقل الطلب إلى مركز أعلى، وبعد ذلك يتم توصيل رزق هذه الخلية ونصيبها إلى عتبة بابها وفقًا لقائمة الحاجات التي قدّمتها من قبلُ إلى المركز المسؤول، كل خلية تقوم بالإنفاق باستقلالية تامة، ثم تقوم دُوَيلات الخليات هذه، بالتجمّع والانضمام إلى بعضها البعض لتكّون بذلك دولة اتحاد كبيرة.

هذا الترابط العجيب والانسجام البديع بين الأشياء ما هو إلا أثرُ وعيٍ وإدراك عظيم، وإن ما يقوله هؤلاء الذين لم يدركوا حقيقة المسألة، لا يتعدى عبارات الذهول والحيرة والاندهاش، ظنًّا منهم أن مصدر هذا الوعي والإدراك هو الطبيعة، لذا لا يجدون حيلة سوى الاندهاش والحيرة أمام التدبير العظيم، أمّا نحن فنعبّر عن حَيرتنا وإعجابنا بهذه العبارات الجميلة التي تقول: "سبحان مَن تَحيَّرت في صُنْعه العقولُ". أجل، إن الذات الإلهية التي انبهرت العقولُ أمام آثار قدرتها، منزَّهة عن العجز والنقصان.

فكلّ خلية من بين ملايين الخلايا التي تكوّن الجسد، تبدو وكأنها تملك عقلًا جبارًا تدير به العالم.. عقلًا مثل عقل أفلاطون في ذكائه وفطنته، وكأن هذه الخلايا كلها عقدَتْ اتفاقية فيما بينها، لتؤازر بعضها بعضًا في حماية الجسد وإدامة صحته بقوة، ألا تؤكد عملية الخلايا هذه، على وجود قدرةٍ عظيمة يَخضع لها كل شيء في الكون؟

هذا التآزر المحكَم موجود أيضًا في عالم الذرات الذي تعيش فيه الكائنات الصغيرة بانسجام، وموجود كذلك في الكون الذي تجري

فـي فضائه النجوم والكواكب، وبالتالي فإن الموجات الكهرومغناطيسـية، والإشـعاعات، تتفاعـل فيمـا بينها بوعي عجيب، ولو لـم يكن هذا الوعي التفاعلي، لَمَا اسـتطاعت مجرّة من المجرات -التي تنبض كالقلب وتزداد توسـعًا نحـو غاية محـددة- أن تواصل حياتهـا، من الواضـح إذًا أننا إزاء قـوة خارقة وقـدرة جبارة، وهذا الترابط المنضبـط يؤكد على وجود وعي تفاعلي بين جميـع الموجودات.

لِنتأمل الآن: هل الذرة العمياء الصماء العاجزة التي لا تملك عقلًا ولا قـدرة ولا إرادة، هـي التي أسسـت هذا الانضباط والتدبيـر والترابط الذي يمتد من أصغر الأكوان إلى أكبرها، أم الله ذو العظمة والجلال المنزَّه عن النقص، والمتّصف بجميـع صفات الكمال؟

إن صاحب القدرة اللانهائية سـبحانه يَعِـد بأن هذا الكون الذي خلقه كتابًا، سيطويه يومًا لينشره في يوم آخر من جديد، وما دام هو القائل، وما دام الأنبيـاء والصديقون والأولياء المعنيون بهذا الموضوع يشـهدون على ذلـك، فإن البعث سـيتحقق بـكل تأكيد، فعلينـا أن ننظر إلـى البعث على اعتباره واجب الوقوع وليس ممكن الوقوع.

يقـول تعالـى: ﴿**يَوْمَ يُنْفَـخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُـونَ أَفْوَاجًا ۞ وَفُتِحَتِ السَّـمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا**﴾ (سورة النَّبَأ: ٧٨/١٨-١٩)، إنه مشهد رهيب، حيث يجتمـع الناس أجمعـون والجن أجمعون في ميدان الحشـر للإجابة على أسـئلة "الأمانة الكبـرى" التـي تحمّلوهـا، وتحضر الملائكـة والكائنـات الأخرى كذلك شـاهدة عليهـم، وما أكثـر الآيات القرآنيـة التي تلفت الأنظار إلى دهشـة مشهد الحشر ذلك.

دورة الموت والحياة

عندما نشـاهد وجه الأرض في بعض فصول السنة بالتحديد، نجد أن كل شـيء دخل في وتيرة من الانبعاث المتواصل، ونجد كل المخلوقات منتظمـة مصطفة في موكب رسـمي وقد أخـذت أماكنها أمام خالقها ﷻ.. الأشـجار والأعشـاب والمـروج جميعًـا مصطفّـة كالجنود فـي أزياء من التعظيـم للشـاهد الأزلي ﷻ، وفـي فصل آخر ننظر فإذا بأوراق الأشـجار تتساقط متناثرة، وإذا بموجودات تتحول أنقاضًا متراكمة، حتى تغدو الديار صحـراء قاحلـة، نشـاهد الأرض في فصـل الربيـع وهي فـي قمة الجمال والروعـة، ونشـاهدها في فصـل الخريف فتبـدو باهتة كالحـة كأنْ قد نُثر رمادٌ على وجهها بفعل رياح عاصفة مدمرة، في الخريف نسـير وكأننا في سـاحة جدباء جرداء، وفي الشـتاء لا نكاد نشـعر بأثر للحياة في المواقـع التـي غطتها الثلوج؛ حيث تتحول الأشـجار إلى عظـام جافة ميتة، وتندثر الأعشاب، وتتعفّن البذور تحت التراب.

ولكن ما إن يحلّ الربيـع حتى تنتعش هذه الأنقاض وتحيا من جديد، ونرى تلك الأشـجار اليابسـة وقد لبسـت حلّتها من السـندس والإستبرق

لتقف بين يدي الشاهد الأزلي ﷻ، الأعشاب والأزهار الميتة، والبذور المتعفنة تحت الأرض، تبدأ بالنموّ والازدهار، جميع الحشرات والهوام تفيق من رقدتها العميقة، لتستنشق الهواء النقي الذي يلامس وجوهها، ولتجد رزقها مخزَّنًا مفروشًا على سطح الأرض بلونه الأخضر. نعم، هكذا يبعث الله ﷻ الملايين من أنواع المخلوقات في فصل الربيع ويحييها من جديد.

إن البعث العام بعد الموت العام يتحقق بحيوية عظيمة تشكل قناعة راسخة لدى الناظر أن سنموت نحن كذلك، ولكن سنبعث في ربيع عالم آخر، تمامًا مثلما تُبعَث هذه الكائنات، فكل جزء من الكائنات الحية على أهبة الاستعداد دائمًا لعملية الانبعاث، حيث يقدم مناظر متنوعة خلابة تسرّ الناظرين، ولكن من الصعب جدًّا تناول هذه المناظر كلها على انفراد وشرحُها وتحليلها بالتفصيل في هذه السطور القليلة، لذا نكتفي بتقديم مثال واحد فقط: إن الفواكه التي تزين موائدنا، وتبتسم إلينا من بين الشوك تارة، ومن بين الرياض تارة، ومن فوق الأشجار تارة أخرى.. أجل، كيف تتكوّن هذه الفواكه التي تشكّل غذاء لأبداننا، ولذة في أفواهنا؟ من أجل أن نستوعب ذلك جيدًا، ينبغي أن ندرك موضوع البناء الضوئي قبل كل شيء.

إن البناء الضوئي يتحقق في عالم النبات بسهولة وبكثرة، والبشرية رغم تقدمها التقني والتطور التكنولوجي المذهل، لم تستطع إنجاز ما تقوم به شجرة حتى الآن، فالماء، وثاني أكسيد الكربون، والكلوروفيل في الأشجار الخضراء والطاقة الشمسية، ينتج السكر الذي يسمى بـ"الكربوهيدرات"، فيتم امتصاص ثاني أكسيد الكربون من قبَل مسام الأوراق الخضراء

على الشجرة ويتحقق تنفس الهواء، وهذا يسمى بـ"الامتصاص *(Absorption)*"، كما ينتقل ثاني أكسيد الكربون بطريقة "الانتشار" داخل ورقة الشجرة إلى موقع الكلوروفيل، وهذا الكلوروفيل هو العنصر الأساسي للاخضرار، وعندما يتم الاختلاط بالماء الآتي من الجذور، ينتج السكر، هذه النتيجة تتحقق عبر عملية يسيرة جدًّا، وهكذا يخلق المولى ﷻ كل ذلك بسهولة للغاية، ولكنها من صنف "السهل الممتنع" الذي يعجز البشر عن القيام به، فهذه الفواكه الشهية التي تتدلى من أغصان يابسة، تُخلق بهذه الطريقة السهلة الممتنعة.

وأثناء عملية البناء الضوئي، تقوم الشجرة بعملية التنفس، وتستهلك طاقة معينة، ولكن لكي تحصل على كمية الهواء اللازمة، تستهلك خمسة أو عشرة أضعاف طاقتها المعتادة، والسبب في ذلك هو أن أمام هذه الشجرة ليلة مظلمة تضطرها إلى تغيير طريقة تنفسها أثناءها، ثم سيأتي فصل الشتاء الذي يصعب فيه القيام بعملية التنفس هذه، فضلًا عن زيادة كمية الطاقة المستهلكة لدى الأجزاء غير الخضراء أيضًا في هذه الشجرة، فأيّ تدبير خارق هذا! وأيّ وعي دقيق! وما أشد حمق من ينسب هذا التدبير المذهل إلى تلك الشجرة التي لا تملك عقلًا ولا تفكيرًا!!

إن القدرة الخارقة التي لا تترك ثمرة على غصن شجرة في أي مكان في الأرض بدون عناية واهتمام؛ كيف يُعقل أن تَترُك الإنسان -الذي هو ثمرة شجرة الكون- سُدًى!؟ فالباري المتعالي الذي يلبّي حاجة أصغر مخلوق في الكون، أيُعقل ألّا يلبّي أعظم رغبة لأعظم مخلوق (الإنسان)، وهي رغبة الخلود؟

كلا، إن الإنسان الذي خُلق من أجل البقاء والذي لا يرضى إلا بالباقي الحقيقي، يستحيل أن يُترك في القبر للبِلى والتعفُّن والتلاشي، إنه سيبعث من جديد في عالم آخر لكي يعيش حياة متناسبة منسجمة مع ظروف ذلك العالم.

ويشير القرآن إلى هذه الحقيقة بقوله تعالى: ﴿**قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ (سورة العَنْكَبوتِ: ٢٠/٢٩)، ﴿**فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ (سورة الرُّوم: ٥٠/٣٠).

إن مَن جمع ملايين الكتب في صفحة واحدة دون أيّ خلل وفرشها أمام أنظارنا فرشًا، إذا وعَدَنا بجمع كتاب فَكّك قوالبه وفرّق أجزاءه وفق صورته الأولى مرة ثانية، فهل يعجز عن تنفيذ هذا الوعد يا ترى؟

هبْ مخترعًا ماهرًا اخترع آلة جديدة لا مثيل لها، فركّبها وأبدع في صنعها، ثم فككها وفرّق جميع أجزائها، ثم قال لك إنه سيركّبها مرة أخرى، فهل تقول له "مستحيل، أنت لا تستطيع فعل ذلك"، وهو مخترع تلك الآلة؟

وهب قائدًا عظيمًا جمّع جيشًا من لا شيء، ونظم جنوده ورتب صفوفهم، ثم أمرهم بالذهاب إلى الاستراحة بعد التدريب، ثم قال لك إنه يستطيع بنفخة بوق واحدة أن يجمعهم ثانية رغم شتاتهم، فهل تقول له "كلا، لا تستطيع"؟!

هذه الأمثلة البسيطة، تؤكد استحالة إنكار البعث بعد الموت والتجمع للحساب يوم الحشر، ليست هذه فحسب، بل هناك ملايين الأمثلة المماثلة التي تثبت الآخرة وتؤكد على وجودها تأكيدًا لا يقبل النقاش.

عناية كبيرة لأصغر الكائنات

إن مادة السَّليلوز مع مادة "اللِيغْنِين"[١٩] في الأشجار، تشكلان المكوِّن الأساسي لأجسامها الغليظة، والسليلوز يحظى بمكانة متميزة في صناعة الورَق إلى جانب استخدامه في مواد صناعية عديدة، فهو الذي يمنح الأشجار قدرة على الانحناء -انحناءة الركوع بين يدي الخالق- دون أن تنكسر بفضل خاصية المرونة التي يتمتع بها.

كما أن السليلوز لا يذوب ولا يُهضم بسهولة، وإن تناول إنسان طعامًا يحتوي على مواد سليلوزية، لا تستطيع معدته إذابتها وهضمها، لكن الحيوانات المجترّة، لدى أمعائها القدرة على تحليل مادة السليلوز وإذابتها عن طريق أنزيمات تفرزها، وهكذا يتحول السليلوز في جسم الحيوانات إلى مادة مفيدة ننتفع بها نحن البشر أيضًا، إذ إننا نستفيد من بِراز تلك الحيوانات سمادًا للأراضي والحقول، وبذلك نرى أن الحيوانات جميعها، بمثابة مصانع تعمل على تحويل السليلوز إلى مواد نافعة ومفيدة.

(١٩) **الليغنين**: عبارة عن مركب كيميائي معقد يستخرج في أغلب الأحيان من الخشب، حيث يشكل حوالي ربع إلى ثلث الكتلة الجافة منه. ويعد الليغنين من مكونات الجدار الثانوي في الجدار الخلوي للنباتات وبعض الأشنيات. (**المترجم**)

ومـن جهـة أخرى ليـس بإمكان الحيوانـات أن تأكل كل هـذه المواد السـليلوزية، إذ يسـقط قسـم منها على الأرض، فتقوم البكتيريا الموجودة على الأرض بعملية خارقة للعادة لتحوّل هذه المواد إلى جزيئات صغيرة، ونتيجة ذلك تستفيد تربة الأرض من جانب، وتتخلص الكرة الأرضية من الروائح الكريهة ويتصفى هواؤها من جانب آخر.

وفي هذا السياق ينبغي أن لا نستخفّ بأمر البكتيريا كذلك، لنفكّر معًا، لو لم تتفسخ النباتات والحيوانات الميتة ولم تتحلل وتذب في التراب منذ أن خُلقتْ الأرض، ولو لم تتآكل أجسام الموتى منذ أبينا آدم عليه السلام، فكيف ستكون الحياة اليوم يا ترى؟ لا داعي للتعمق في الموضوع أساسًا؛ فالبعوض الذي يعيش بضعة أسابيع أو أيام، بل ساعات ثم يموت، لو لم يخضع لعملية التآكل هذه، كنت سترى الأرض مغمورة بجثث البعوض، ولن تجد حينها مكانًا تضع عليه قدمك للمشي.

مـن هنا، نـرى بوضوح أن الخالـق الحكيم كلّف أصغـر المخلوقات بتنفيـذ أعمـال غايـة فـي الضخامة، حيـث أعطـى مهمة تنظيـف الأرض لكائنات تعيش ملايين منها في حفنة من تراب فقط.

وهكـذا، فالمدبـر الرحيـم سـبحانه الذي لم يتـرك السـليلوز وخلايا البكتيريا سـدًى، بل شملها ومثيلاتها من الكائنات الصغرى برعاية خاصة عظيمـة، هل يعقل أن يترك الإنسـان بلا عناية وهو سـلطان هذه الكائنات كلها؟

أدلة.. وأدلة.. وأدلة

إن اندمال الجرح وندوبِه ثم تساقطَ هذه الندوب، وقيامَ الجسم بترميم نفسه، دليل على الحيوية في ذلك العضو المجروح، الفاكهة تشير إلى الشجرة الحاملة لها، والآثار على الطريق تشير إلى العابر منها، وتسرّبُ الماء من مكان ما يشير إلى وجود مجاري مياه هناك، وكذلك من ينظر إلى جسم الإنسان يلمح آثارًا، وتسرّبات، وترميمات يستحيل معها أن لا يُقرّ بوجود الآخرة.

كيف خطرت فكرة الخلود ببال هذا الإنسان المحصور في قوالب محدودة؟ لا يمكن ادعاء أنه وصل إلى هذه الفكرة من تلقاء نفسه، كما لا يوجد على الأرض مخلوق يمكن أن يُلهم الإنسان هذه الفكرة، إذن إحساسه هذا ما هو إلا رسائل أُرسِلت إليه من عالم آخر، فكما أن تسرّب الماء دليل قطعي على مجاري المياه، فكذلك تسربات الخلود دليل قطعي على العالم الأبدي.

الإنسان يجني ثمارًا روحية لا يمكنه حيازتها في عالم المادة من خلال ملكاته اللدنية ولطائفه المغروسة في عالمه الداخلي، إن الإنسان لينطلق

أحيانًا، ويُعرِض عن الدنيا بما فيها من زخارف ويسمو عليها محرزًا مكانة عُليا، فهذه الحالة السامقة تدل دلالة قطعية على أن هذا الإنسان له علاقة وثيقة بموجودٍ غيرِ مقيَّد بعالم "الإمكان" هذا، أي وجودُه ليس ممكنًا بل "واجبٌ"، فهذه الدنيا المحدودة التي ستُهدَم يومًا ما، ولن يعاد ترميمها مرة أخرى، تشير إلى دار لن تُهدَم أبدًا، فكل كائن في هذا الوجود يشير إلى خالقه من ناحية، ويشير إلى امتداده في العالم الآخر من ناحية أخرى.

فكما تتصل الخلايا في جسم الإنسان وترتبط ببعضها البعض وتبادر إلى مساعدة الخلية المعطوبة، وكما يعمل الجسم كأقاليم مستقلة عن بعضها البعض، ونجد أن هذه الأقاليم تجتمع عند الضرورة وتتحد في مواجهة العدو وتطرده شر طردة؛ كذلك الكون الذي يشتمل على كائنات تنبض كالقلب، وتنشر الضوء كالعين، وتتقلص حينًا وتنبسط حينًا آخر، من أصغر ذرة إلى أكبر مجرة.. كل ذلك يعمل كالجسد الواحد الذي يتكوّن من أعضاء مختلفة، ومن يدري، لعل الخالق الكريم سبحانه وظّف ملكًا من ملائكته بإدارة الكون، وقد يكون ذلك الملك روح الكون، هذا الكون العظيم مع نموذجه المصغر (الإنسان) مرآة صقيلة تتجلى فيه أسماء الله الحسنى بكل وضوح، إن بنية الكون تشبه جسم الإنسان تمامًا، يصاب بجروح ثم يُداوَى ويُشفَى، يقول أنشتاين: "في زوايا بعيدة من هذا العالم تولد أجرام جديدة كل يوم من خلال سر عجيب لا نعرفه"، ولا شك أن الله تعالى بعد أن شيّد هذا القصر البديع المسمى بالكون، سيُكرِّمه كما كرَّم جسم الإنسان تمامًا، ويسمح له بأن يواصل عمله حتى تنتهي مهمته.

وبالتالي فإن الكون سيظل ينبض كالقلب، ويرى كالعين، وينشر الضوء كالشمس، إلى أن تنتهي مهمة البشر على الأرض، وسيؤدي وظيفته التي كُلِّف بها أداء مؤمن مدرك لمعنى مسؤوليته، ولذلك ستُرمَّم مواقعه كلما تهدمت، ويضاف الجديدُ إلى قديمه، ثم يُشيَّد عالم آخر أشار إليه عالمُنا هذا ودلّ عليه في زاوية ما من هذا الوجود.

والحقيقة أننا -نحن البشر- عاجزون عن استيعاب حقيقة الأشياء والأحداث التي تدور في الكون بصورة كاملة، نحن نتجول في شعابها مثل متفرج لا يفقه لغتها ولا يدرك معنى سلوكها؛ لهذا نجهل فائدتها، وفيمَ تستخدم، وكيف يمكن تصنيع تراكيب جديدة من مكونات مختلفة، وما هي هذه المكونات بالتحديد؟! إذا أدركنا كنه الأحداث وحقيقة الأشياء يومًا، واستوعبنا كيفية خلقها، فلعلنا نتمكّن -حينئذ- من فتح أبواب الاستفادة من شتى الكائنات، ونكتشف طرقًا متنوعة في الانتفاع حتى من الجراثيم الضارة لحياتنا، ولكننا الآن، نشبه قومًا يتفرجون على نهر يجري بين أيديهم فقط، ولا يستطيعون الاستفادة منه كما ينبغي.

نعم، الأشياء والأحداث تجري ونحن نتفرج عليها فقط؛ وقد جاء دعاءٌ في الأثر: "اللَّهُمَّ أَرِنَا الأَشْيَاءَ كَمَا هِيَ"[٢٠]، إن إحدى الغايات المنشودة للإنسان -وربما الغاية الأسمى له- معرفة طرق النفوذ إلى كنه الأشياء. نعم، لو أمعنا النظر في هذا الكون من هذا المنظار، فسنتمكن حينها من رؤية ما وراء الأشياء والأحداث، ومعاينة عالم الآخرة من وراء ستار شفاف رقيق.

(٢٠) ابن الجوزي: **صيد الخاطر**، ٤٢٩/١؛ فخر الدين الرازي: **مفاتيح الغيب**، ١١٩/١.

وإن الأشـياء التي تبدو متناقضة فيما بينها، هي أساسًـا مكمِّلة لبعضها البعض، فالشوكة إلى جانب الوردة، والبلبل مـع الغراب... إلـخ، فلا شيء فـي الكـون خُلـق عبثًا، فمثلًا لـو أبدْنا الكلاب التي تعيـش على الأرض، فسينشأ فراغ كبير في التوازن البيئي، وقد رأينا كيف أعلن مفكر غربي -في سالف الزمان- أن نوعًا من أنواع الطيور أوشك على الانقراض، وأكد من خـلال الصحـف أن هذا الأمر سـيُحدِث فجوة خطيرة وخللًا جسـيمًا في الكون لا يعوَّض.

كل مخلـوق في الكون يقوم بوظيفة مـن الوظائف، فلو دمرنا كائنًا ما حسـب هوانا، فإن ذلك سيُحدِث شرخًا مدويًا ينذرنا قائلًا: "احذروا! فقد أحدثتم في الكون خللًا كبيرًا".

لقد ورد عن سـيّد الأنبياء صلوات الله عليه وعليهم أجمعين أنه قال: "**لَـوْلَا أَنَّ الْـكِلَابَ أُمَّةٌ مِنَ الْأُمَمِ لَأَمَرْتُ بِقَتْلِهَـا**"(٢١)، إذًا حتى الكلاب أمة كالبشـر، وهذا معناه أنها حملتْ وظائف مهمة على عاتقها، وسـدّتْ ثغرة كبيـرة في الكون، ولو بحثنا عن مبررات لإبـادة الكلاب لوجدناها بكثرة، من اعتداء على الناس وترويعهم، وحيلولتها دون دخول الملائكة المنازل التي توجد فيها -كما جاء في الأحاديث النبوية- وحملها لجراثيم خطيرة تهدد صحة الإنسان... إلـخ، لكن الرسول ﷺ لم يأمر بقتلها، لأن لها موقعًا ودورًا فـي هذا الكـون، المهم أن نعرف موقعها ودورهـا فنضعها فيه، أما قتلها فيسبب أضرارًا جسيمة لا تعوَّض أبدًا.

(٢١) سنن الترمذي، الصيد، ١٦، ١٧؛ سنن أبي داود، الأضاحي، ٢٢؛ سنن النسائي، الصيد، ١٠.

كذلك لو تم القضاء على البكتريا المنتشرة بين الأشجار، فستستولي الجراثيم بعد سنوات قليلة على الفواكه، ولن نقدر بعد ذلك على تنظيفها من تلك الجراثيم مهما حاولنا، فالمولى الحكيم ﷻ قد وضع في الكون نظامًا للتوازن قائمًا على مبدإ التضادّ، فإذا أزلنا طرفًا من هذا التضاد -مثلًا- استولى الطرف الآخر وأحكم سلطته فورًا.

أجل، إن الكون بناء محكم تَرتبِط كل لبناتِه فيما بينها بقوة، وإذا قمنا بإزالة لبنة واحدة منه، فسينهار المبنى برمته حتمًا.

وكذلك ثمة مواسم ومراحل تصبغ الأحداث بصبغتها، فقد أثبت بعض العلماء أن الأسماك في البحر تزداد كثافة كل أربع عشرة سنة، وكمية الحبوب تزداد كل سبع سنوات، فلو أجريت بحوث علمية حول دورة المواسم هذه بدقة، فقد نصل إلى حل كثير من المسائل الاجتماعية والاقتصادية التي يعاني منها الإنسان، وقد تضمن القرآن الكريم إشارات إلى تداول المواسم وخصوصًا في سورة يوسف.

إن دوران هذه المواسم الصغيرة بنظام وانتظام، إثبات وإشارة إلى أن الدنيا كذلك حلقة من سلسة هذه الدورات، وهي أيضًا ستنتهي، ثم تبدأ بعدها دورة أخرى، فمن عاش غافلًا عن الله في هذه الدنيا مستمتعًا برغد الحياة ورخائها، سوف يعيش في القبر وتيرة موسومة بمعاني الضيق والفقر، ثم تأتي بعدها دورة البعث والحشر، حيث يعيش فيها حياة ملؤها الخوف والحساب والمعاناة، ثم تأتي مرحلة اجتياز الصراط، فمن اجتازه بلغ جنة الخلد وشرُف برؤية جمال الله سبحانه، وحري بالقول إن الإنسان

هنـاك سـواء تقلّب فـي النعيم الخالـد أو العذاب الأليم لـن يتعرض لداء الألفة، وسـوف يواصل مسـيرته وفق مواسـم ودورات متعاقبة من النعيم إن كان من أهل الجنة، ومن العذاب إن كان من أهل جهنم.

نعيـش في عالم قسّـمه الخالق الحكيم إلى مراحل ومواسـم متعاقبة، ولكـن مواسـم دار الدنيا تنتهي مثـل قصيدة بلا قافية، وعالـم الخلد قافية تلك القصيدة، وسيكمل الله ﷻ نظمها من دون شكّ.

عـدي بـن حاتم ﷺ -وهو ابن حاتم الطائي الذي يضرب به المثل في الجود والسـخاء، وابنُه عديٌّ هذا كان نصرانيًا ثم هداه الله إلى الإسـلام- وقد ذكر النبيُّ أمامه ثلاث نبوءاتٍ على النحو التالي كما حدَّثَ هو فقال: بينا أنا عند النبي ﷺ إذ أتاه رجل فشـكا إليه الفاقة، ثم أتاه آخر فشـكا إليه قطـع السبيل، فقال النبيُّ ﷺ: "**يَا عَدِيُّ، هَلْ رَأَيْتَ الحِيرَةَ؟**" قُلْتُ: لَمْ أَرَهَا، وَقَـدْ أُنْبِئْـتُ عَنْهَا، قَالَ ﷺ: "**فَإِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ، لَتَرَيَنَّ الظَّعِينَةَ تَرْتَحِلُ مِنَ الحِيـرَةِ، حَتَّـى تَطُوفَ بِالكَعْبَةِ لاَ تَخَافُ أَحَدًا إِلَّا اللهَ، وَلَئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتُفْتَحَنَّ كُنُوزُ كِسْرَى**"، قُلْتُ: كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ؟ قَالَ ﷺ: "**كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ، وَلَئِـنْ طَالَـتْ بِكَ حَيَـاةٌ، لَتَرَيَنَّ الرَّجُلَ يُخْرِجُ مِلْءَ كَفِّهِ مِـنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ، يَطْلُـبُ مَـنْ يَقْبَلُـهُ مِنْهُ فَـلاَ يَجِدُ أَحَدًا يَقْبَلُـهُ مِنْهُ**".. قَالَ عَـدِيٌّ ﷺ: "فرأيتُ الظعينـة ترتحـل مـن الحِيرة حتى تطوفَ بالكعبة لا تخـاف إلا الله، وكنتُ فيمـن افتتح كنوز كسـرى بـنِ هرمز، ولئن طالت بكم حيـاة لترونّ ما قال النبي أبو القاسم ﷺ عن الرجل يُخرِج ملء كفه"[٢٢].

(٢٢) صحيح البخاري، المناقب، ٢٥؛ مسند الإمام أحمد، ٤/٢٥٧-٣٧٨.

أجل، عندما أكد عدي بن حاتم ﷺ على صدق نبوءة النبي ﷺ فيما يتعلق بمستقبل الأمة، فقد أكد بطريقة غير مباشرة على صدقه ﷺ في أخباره عن الآخرة كذلك.

وها هو المصطفى ﷺ يدعو للصحابي الجليل أنس بن مالك ﷺ قائلًا: "**اللَّهُمَّ أَكْثِرْ مَالَهُ، وَوَلَدَهُ، وَبَارِكْ لَهُ فِيمَا أَعْطَيْتَهُ**"(٢٣)، فعمّر أنس ابن مالك ﷺ أكثر من مائة عام، وكان يقول: "فَوَاللهِ إِنَّ مَالِي لَكَثِيرٌ، وَإِنَّ وَلَدِي وَوَلَدَ وَلَدِي لَيَتَعَادُّونَ عَلَى نَحْوِ الْمِائَةِ الْيَوْمَ"(٢٤).

وهكذا، فإن وقوع النبوءات النبوية التي تتعلق بالحياة الدنيا، إنما هو دليل قاطع على وقوع البعث الذي أخبر عنه المصطفى ﷺ حيث يفرح المؤمن ويحزن الكافر أيما حزن.

ما إن يولد الإنسان حتى تبدأ دورة الحياة والموت بالنسبة له، فكل ولادة تنبئ بموت، وكل موت ينبئ بولادة جديدة، فإنْ لم تكن هناك ولادة أبدية، يصبح الإنسان أتعس مخلوق على وجه الأرض، ولا سيما الأنبياءُ ومن بينهم سيد الأولين والآخرين ﷺ، كيف، وهو ﷺ علّة خلق الوجود، بل إن شجرة الإنسانية ما غُرِست إلا ليكون هو -فداه روحي- ثمرتَها المثلى ﷺ.

فبدءًا من هبوط الإنسان على هذه الأرض، إلى ظهور الأنبياء ﷺ، إلى كل حادثة وكل كائن في دورة الحياة هذه.. كل شيء دليل وشاهد على دار الآخرة.

(٢٣) صحيح البخاري، الدعوات، ١٨؛ صحيح مسلم، فضائل الصحابة، ١٤١-١٤٤.
(٢٤) صحيح مسلم، فضائل الصحابة، ١٤٣.

باختصار، كل دليل يثبت أن رب العالمين هو الله، وأن محمدًا ﷺ هو رسول الله، وأن القرآن كلام الله، دليل في الوقت نفسه على وجود الآخرة، لأن الإيمان بنيان متكامل لا يقبل التجزّؤ والانقسام أبدًا.

التاريخ والفلسفة يقران بعقيدة البعث

إذا ما استقرأنا التاريخ من زاوية عقيدة البعث، نجد أن البشرية عامة قد تبنتها -بطريقة أو بأخرى- منذ الإنسان الأول إلى يومنا هذا، بدليل أن الفيلسوف والمؤرخ الأمريكي "ويليام جيمس ديورانت *(William James Durant)*" (١٨٨٥-١٩٨١م) يذكر في كتابه (تاريخ الحضارة) فهومًا شتى لأقوام عديدة حول البعث بعد الموت، ويسجل ما نحتوه على الجدران من كتابات، وما رسموه في الكهوف من رسومات متنوعة حول طقوس دفن الموتى.

زد على ذلك أن الفراعنة -وهم من هم في حب الدنيا والتعلق بالمادة- كانوا يولون البعث بعد الموت أهمية كبرى، فبعد الحفر والتنقيب في قبور الفراعنة تم العثور على عبارات منحوتة على الجدران تقول ما يلي:

> "سيموت الناس جميعًا، أما المجرمون فستتحول وجوههم إلى صور مشوهة، ويُقذَفون في أسفل الأرض ليذوقوا مرارة العذاب إلى الأبد، أما الأرواح الصافية الطاهرة فسيلحقون بالملائكة ويعيشون سعداء في علياء السماء".

لذلك كان الفراعنة يأمرون بأن توضع معهم في مقابرهم ألوان شتى من الطعام والشراب والملابس الجميلة والحلي الكريمة، صحيح أن الانحراف في العقيدة واضح، بيد أنّ الواضح كذلك أن إيمانًا بحياة أخرى كان الدافع لمثل هذا السلوك، وكانوا يرسمون على جدران مقابرهم وممراتها صور حيتان وثعابين اعتقادًا منهم بأن الآلهة تحب ذلك؛ مما يدل على أنهم كانوا يؤمنون بحياة أخرى تبدأ بعد الموت، وأنهم سينالون بهذه الرسومات مرضاة الآلهة، ومن ثم يضمنون الهناء والسعادة في العالم الآخر.

ثم هناك كتابات ووصايا دفنت مع الموتى تعرف بـ"كتاب الموتى"، وهي نصوص على شكل مناجاة وترانيم تم العثور عليها في المقابر، في هذه الكتابات يقول أحد الأموات في مناجاته:

> "السلام عليك أيها الإله العظيم، أتيتُ إليك لأشاهد جمالك الأبدي، تكرّم عليّ برؤية جمالك، فذلك مطلبي ومرادي، لم أظلم أحدًا، ولم أخن أحدًا، ولم أكن سببًا في بكاء أحد، ولم أقتل أحدًا، ولم أكن جبارًا، ها قد جئت إليك ووقفت بين يديك، لا مراد لي سوى رؤية جمالك".

أجل، إن هذه الكتابة والكتابات المشابهة لها، تدل على أن عقيدة الآخرة كانت موجودة فيهم أيضًا، فلو ذهبنا إلى مراحل مختلفة ومناطق مختلفة وبيئات ثقافية مختلفة من تاريخ البشرية ونقّبنا في مقابرهم، وبحثنا في مساكنهم، فسوف نسمع منها نداء الماضي الصامت الذي يقول: الخلودَ الخلودَ أريد!

يحكي الشهرستاني نقلًا عن زرادشت أنه قال: "لقد أُرسِل الإنسانُ إلى دار الدنيا بمهمة، فمن أجاد القيام بها فسوف تصفو روحه وينضمّ إلى سكان الملإ الأعلى، أما الفاشلون فسوف يسجنون في أسفل طبقات الأرض إلى الأبد".

ومن المحتمل أن العبارات قد فقدت كثيرًا من المعاني التي كانت تحملها الألفاظ الأصلية نتيجة الترجمات المتكررة، لكن المعنى العام واحد، وهذا هو المهم؛ مما يعني أن فرعون مصر -رغم أبهته وجبروته- كان يهمّه ويقض مضجعه هاجس البعث بعد الموت ويحسب له ألف حساب، وكذلك زرادشت وأتباعه في إيران كان يؤرقهم الهاجس نفسه.

وإذا ما عرجنا إلى الهند، فسنجد فيها مئات من الأديان، وقد يكون سبب هذا التعدُّدِ سوء فَهْمٍ أصابَ أتباعَ الدين الواحد؛ إذ حسبوا اجتهادات بعض رموزهم الدينية وممارسات رجالاتهم الصالحين ديانات مستقلة، فابتعدوا نتيجة ذلك عن الدين الأصلي وتوزعوا إلى أديان لا تعد ولا تحصى، ولكن الديانات الهندية تلتقي جميعًا في نقطة مشتركة، وهي عقيدة استمرارية الأرواح، إن عقيدة التناسخ التي تتناقض مع روح الدين الإسلامي شائعة في الهند، وهي عقيدة يرفضها الإسلام رفضًا باتًّا، ولكن النقطة التي تهمنا في الموضوع إيمانُهم بخلود الأرواح، وتذهب بعض تلك الديانات التي تختلف عن الأخرى في تفسيرها لعقيدة التناسخ إلى أن عملية التنقل المستمر من جسم إلى جسم آخر، حالة خاصة بالأرواح الشريرة فقط، في حين يذهب البعض الآخر من هذه الديانات إلى أن كافة الأرواح خاضعة لعملية التناسخ والتنقل، ولكن القاسم المشترك بين

تلـك الديانات، أن الأرواح سـتُتِمُّ في نهاية المطـاف دورة التنقل من بدن إلى آخر، وتستقر في محطة أخيرة محددة.

أمـا "بـوذا *(Buddha)*" فلا يرضى بتلك المكابدة المسـتمرة للروح في سلسلة التنقلات المتواصلة تلك، فيرى أن الروح لا تتنقل إلى ما لا نهاية، ربما يحدث ذلك في البدايات، لكن الأسـاس أن تصل الأرواح إلى حالة "نيرفانا *(Nirvana)*"، أي عودتها إلى الحقيقة المطلقة وتلاشيها فيها.

فلو درسـنا الأدب الهندي بتأنّ وإمعان، واستخلصنا عصارته، فسنرى أن كل قطـرة مـن قطراتـه تشـير إلى عقيـدة البعث بعد المـوت، وكما هو معلـوم، فإنهـم يحرقـون جسـد الميـت بدافـع من عقيـدة التناسـخ التي يتبنونها، والغرض من ذلك ألا تعود الروح مرة أخرى إلى الجسـد نفسـه، وتتعرض للمحن التي تعرضت لها والويلات التي ذاقتها، وذلك دليل آخر على إيمانهم بحياة أخرى.

إن المـؤرخ اليونانـي "هوميـروس *(Homeros)*" قـد تحـدث أكثـر من مـرة عـن منازل الأرواح، فهو يرى أن الأرواح التي تلبس لباس الأجسـام في هذا العالم لكي تعبر عن ذاتها؛ لها منازل خاصة بها في مكان آخر.

وهنـاك الفيلسـوف اليونانـي "فيثاغـورس *(Pythagoras)*" (٥٧٠-٤٩٥ق.م) تحـدث أيضًـا عن عقيدة البعث، فهو يـرى أن الروح إذا كانت صافية زكية، فسـوف ترتقي إلى العالم العلـوي لتلحق بالكائنات العلوية، وإذا كانت خبيثة فسـتحيق بها النيران وتبقى حبيسـة في سجن الأرض، إن البشـر سـوف يحشـرون بذواتهم وشـخوصهم، ولن يبعث أحد في جسم

آخـر، وإنما يبعث الناس جميعًا بشـخصياتهم الذاتية، وسـوف يتم البعث جسميًّا، سواء أكان ذلك الجسم لطيفًا أم كثيفًا.

لم يؤلف الفيلسوف اليوناني "سـقراط *(Socrates)*" (٤٦٩-٣٩٩ق.م) كتابًـا بنفسـه، بل جـاء "أفلاطـون" فنقـل كافة أفـكاره ودوّنهـا، وإن أحد الأسـباب التـي قادت سـقراط إلى الإعـدام إيمانُـه بحياة أخرى وغرسُـه لهذه العقيدة في قلوب الشـباب، ولقد انبرى أفلاطون مدافعًا عن مواقف سـقراط وأفكاره من خلال أدلة كثيرة تؤكد صدق ما قال، وفيما يلي نذكر بعض تلك الأدلة:

دليـل الطبيعـة الفاضلـة: لقد خلق الإنسـان مـن أجـل الفضيلة، وإن بلوغه قمة الفضيلة لا يتحقق إلا بابتعاده عن النزعات الحيوانية والرغبات الشهوية.

دليـل توالـي الأضداد: إن الأضداد في هـذه الحياة تتعاقب فيما بينها، فشتاء يتبـع ربيعًا، وربيـع يلي شتاء، ونور يعقب ظلمة، وظلمة تعقب نورًا، ونهـار بعـد ليل، وليل بعد ظلام، وحياة يعقبها زوال، وزوال تتلوه حياة... وكذلك فإن الحياة الدنيوية التي امتدت أمدًا طويلًا سـوف تنتهي يومًا ما، ويتمخـض عـن وفاتها ولادة جديـدة، وكما يعقب النـورُ الظلامَ، فكذلك سيبزغ فجر الآخرة عقب ظلمة الدنيا.

دليـل الذاكـرة: يقـع للمرء أحيانًا أنه يرى مشـهدًا مَـا؛ فيخطر في قلبه كأنـه رأى ذلـك المشـهد مـن قبل، في حين أنـه لم يسـبق أن التقى بذلك المشـهد فـي هـذه الدنيا قطُّ، إن الحيـاة عبارة عن مقاطـع مختلفة يعقب

بعضها بعضًا، وذلك يعني أن ما نتذكره هنا هي أحوال سبق أن عشناها في عالـم آخر قبـل أن نأتي إلى هذا العالم، إذًا هذا العالم ثمرة لعالم سـابق، وبداية لعالم لاحق.

قـد يشـتمُّ المرء من الدليل الأخير شـيئًا مـن رائحة عقيدة التناسـخ، وأفلاطـون يؤمـن بهذه العقيدة، لكـن ما يهمنا هنا إيمانـه بالآخرة والأدلةُ التي يستخدمها تدعيمًا لعقيدة البعث بعد الموت.

يقول فيلسوف يوناني آخَر "أرسطو *(Aristoteles)*" (٣٨٤-٣٢٢ق.م):

> "هناك كائن في جسـم الإنسـان منفصل عن الجسـم، وذلك الكائـن لا يمـوت"، معلوم أن أرسـطو قد رَوّج لـه الماديون حتى أصبـح أحد رمـوز الفكر المادي، مـع ذلك فهو يتحدث عن كائن لا تقيـده قيود ولا يؤثر عليه الموت، فالإنسـان قد يموت جسـده ويبلـى، لكـن القبـر لـن يسـتطيع أن يضـم جميع كيان الإنسـان ويسجنه بين طياته، فهناك جوهر لطيف في داخل الإنسان يتجاوز القبر والمادة والجسد والدنيا ويرفرف في سماء العالم الآخر.

يقول "زينون *(Zenon)*" (٣٣٥-٢٦٣ق.م) إمام الفلسفة الرواقية:

> "يوجـد في الكائن الإنسـاني نفس إلى جانب الجسـد، وهذه النفس ستواصل حياتها بعد موت بدن الإنسان".

والفلسفة الرواقية تلتزم ببعض المبادئ الأخلاقية الخاصة بها، وعندما نقرأ هذه المبادئ نجد فيها ما يلي: إن الذات العلية التي خلقت هذا الكون في حلَّتِهِ الجميلة تلك، وبثَّتْ في جوانبه نظامًا بديعًا إكرامًا للإنسان ومحبّةً فيه، يستحيل عليها أن تميت الإنسان ولا تبعثه مرة أخرى.

ويقول "هرقليط *(Herakleitos)*" (٥٣٥-٤٧٥ق.م) في الموضوع ذاته:

> "في النشأة الثانية سوف يبعث الناس على هيئة حلقات نارية منثورة حول الكواكب، وإن الأرواح المُنْتِنَة التي يتعذر عليها النجاة، سوف تقيم في عذاب تلك النار إلى الأبد، أما الأرواح الصافية فسوف تخرج من بين الأرواح المظلمة وترفرف نحو الملإ الأعلى، إن سماء العالم الآخر ستكون خالية من النجوم، لأن النجوم سوف تتساقط جميعًا وتحيط بهذا العالم وتشكل نار جهنم".

إن الفلسفة الإشراقية لقيت قبولًا لدى فلاسفة الإسلام في الأندلس، ومن ثم انتشرت الأفلاطونية الحديثة في كافة العالم الإسلامي، وهناك شخصيات سامقة نشأت في رحاب المدرسة الإشراقية، مثل السهروردي، والحلاج، والإمام محيي الدين بن عربي، لقد أكدت هذه المدرسة -من خلال جميع تياراتها- أن البعث بعد الموت استمرار ضروري لهذه الحياة، ودعت إلى تبني هذه العقيدة.

ويتضح من هذا السرد التاريخي، أننا إذا استثنينا حفنةً من الفلاسفة ضيّقي النظر المتعصبين من أمثال "أبيقورس *(Epicurus)*" (٣٤١-٢٧٠ق.م) و"ديمقريطس *(Democritus)*" (٤٦٠-٣٧٠ق.م)، فإن تاريخ الفلسفة حافل بآلاف الفلاسفة الذين يؤمنون ببقاء الروح وعقيدة البعث بعد الموت، مؤكدين ذلك بمئات من الأفكار والرؤى والأدلة والتصورات.

هناك كتاب لـ"ديكارت *(Descartes)*" الفيلسوف العقلاني والرياضي الفرنسي (١٥٩٦-١٦٥٠م) يتحدث فيه عن وجود الله وأبدية الروح اسمه "سانحة"، في هذا الكتاب -الذي سجل فيه بعض السوانح والإلهامات

الواردة على قلبه- تطرق لأول مرة في مسيرته الفلسفية إلى مفهوم الروح، وأنها جوهر لطيف منفصل عن الجسد؛ كما حلل أبدية ذلك الجوهر تحليلًا عميقًا ودقيقًا، وقد وعد ديكارت قرّاءه بأن يخصص كتابًا آخر يتحدث فيه عن كيفية بقاء الروح، لكننا لم نجده قد عالج ذلك الموضوع بصورة مفصلة في كتبه الأخرى المنسوبة إليه، غير أن التحليلات التي قام بها في كتابه ذاك حول مباحث الآخرة، بلغت من الجودة مستوى يغني عن تأليف كتاب آخر في الموضوع نفسه.

وقد أعقب ديكارت فلاسفةٌ عقلانيون آخرون في مجال اللاهوت مثل الفيلسوف وعالم الطبيعة الألماني "لايبنتز *(Leibniz)*" (١٦٤٦-١٧١٦م) والفيلسوف البرتغالي "سبينوتزا *(Spinoza)*" (١٦٣٢-١٦٧٧م)، حيث طرح لايبنتز "نظرية المونادات *(Monadology)*"[٢٥] فقال:

> "إن من طبيعة المونادات أن تنمو وتمتد وتتفتح إلى ما لا نهاية، غير أن الزمان في هذا العالم محدود، لذلك يتعذر الامتداد والتفتح اللامتناهي، ينبغي أن يكون الزمان لا متناهيًا لكي يتم الامتداد اللامتناهي، وهذا يقتضي وجود عالم آخر لا متناهي الزمان، إذن فكل فرد مرشح للبقاء والخلود من أجل أن ينمي موناداته الخاصة به".

أما "سبينوتزا" فيذهب في اتجاه التعميم حيث يقول:

> "إن الحياة الأبدية لن تقتصر على الشخوص، وإنما ستمتد الحياة بصورة متوحدة متكاملة، وذلك يعني وحدة الوجود".

(٢٥) "**المونادات**" جمع "موناد" كلمة يونانية تعني الوحدة، استخدمها لايبنتز بمعنى الجواهر أو الخلايا المكوِّنة للكون. (المترجم)

وإذا واصلنا تتبعنا لتاريخ الفلسفة، فسنجد أن "باسكال *(Pascal)*" (١٦٢٣-١٦٦٢م) و"برجسون *(Bergson)*" (١٨٥٩-١٩٤١م) -وهما من الفلاسفة الفرنسيين المتأخرين- كذلك ممن آمنوا بعقيدة البعث بعد الموت.

أبو العلاء المعرّي من الشعراء الذين اختلطت عليهم بعض الأمور في العقيدة، ومن ثم تجده في بعض الأحيان يسخر من بعض القضايا الدينية، لكننا وبمجرد إطلالة سريعة إلى رائعته "رسالة الغفران"، نجد براعته في رسم مشاهد يوم الحشر بصورة دقيقة مؤثرة استلهامًا من مشاهد القيامة في القرآن الكريم.

وكأنّي بـ"دانتي *(Dante)*" (١٢٦٥-١٣٢١م) ذلك الشاعر الإيطالي قد قرأ مشاهد المعرّي تلك، ثم نقلها في أعمالهِ الأدبيّة التي صور فيها مقاطع عجيبة من الجنة والنار ومواقف الأعراف.

أضف إلى هؤلاء أدباءَ وشعراء آخرين يحملون عداء شديدًا للدين، لكنهم لم يجدوا بدًّا في أعمالهم من الحديث عن البعث ومشاهد الحشر والحساب ومواقف الآخرة.

أجل، إن عقيدة البعث حقيقة لا شك فيها، وهي من الصدق بحيث أجبرت أعداء الدين على تصديقها والحديث عنها.

الكتب السماوية وعقيدة البعث

إن ثلثي آيِ القرآن تقريبًا متعلق بموضوع الآخرة بشكل أو آخر، وقد ذكرنا بعض الأمثلة المتعلقة بهذا فيما سبق، ومن ثم نحيل القارئ الكريم إلى تلك المباحث لننبّه في هذا المبحث بشكل موجز إلى الكتب السماوية الأخرى، والإشارات التي احتوتها تلك الكتب حول عقيدة البعث بعد الموت[٢٦].

لقد جاء الإنجيل مصححًا لما حُرّف في التوراة ومصدقًا لما بقي على صحته، وقد تحدثت التوراة بإسهاب عن الآخرة ومشاهدها، لذا اكتفى الإنجيل بتصديقِها ولم يفصِّلْ في الموضوعِ مرَّةً أخرى، ومع ذلك فإنّنا نجد الإنجيل يشتمل على عديد من العبارات التي تتحدّث عن البعث بعد الموت ومشاهد القيامة وصور الآخرة، من ذلك ما ورد في إنجيل متى:

> "من عمل صالحًا في هذه الدنيا فسوف يرقى إلى ملكوت الربّ. طوبى للمساكين! فإنهم سيرقون إلى ملكوت السماوات، طوبى للرحماء! فإنهم ينالون رحمة الرب في العالم الآخر. طوبى للمتقين! فإنهم سيرون ربهم"[٢٧].

---

(٢٦) من أجل الحصول على معلومات حول بعض المواضيع التي تشير إلى الإيمان بالآخرة في العهد القديم انظر: **الكتاب المقدس**، العهد القديم، سفر إشعياء، الفصل، ١٩/٢٦؛ سفر دانيال، الفصل، ٢/١٢.

(٢٧) **إنجيل متى**، الإصحاح، ٣/٥-٨.

"إن مَثـل ملكوت السـماء والأرض كمثل زارع نثر بذوره في مزرعة، فنبتت تلك البذور، وامتدت نحو السـماء المنشـودة، فإذا بها بعض الشـوك، فيأتي بعض من يرى ذلك الشـوك إلى صاحب المزرعة فيقولون: سـيدنا، لقد تحقق المطلوب، ونمت تلك النبتة وأينعـت، ولكـن مـا هذه الأشـواك؟ فيجيبهـم قائلًا: هـذه وتلك، كلتاهما ضروريتان، فسـأل الحواريون المسيح: هل لك أن تشرح لنا سر هذا المثل؟ فقال المسيح: نعم، الزارع هو الله، أما المزرعة فهـي الأرض، أمـا البذور فهم البشـر، أما المحصـول الذي ابتغي من وراء ذلك الزرع فهم الصالحون من الناس، أما الأشـواك فهم الكفـار، هنـا يتجـاور الخير مـع الشـر، أما في الآخـرة فأصحاب الخيـر يرتقون إلى ملكوت السـماء، وأصحاب الشـر يقذفون في نار جهنم"(٢٨).

ومنها أيضًا ما ورد في الإصحاح الخامس والعشرين من إنجيل متى:

"فـي ذلـك اليـوم سـيأتي المَلِـك، فيقـفُ الأبرار عـن يمينه، والأشـرار عن شـماله، سـيقول الملك للأبرار: اليوم سـأكافئكم، لأننـي جُعـتُ فـي الدنيـا فأطعمتمونـي، وعطشـت فسـقيتموني، وسُـجِنتُ فأعتقتمونـي، واغتربـت فآويتمونـي، فيقولـون للملك: يا ربنا، كيف تجوع وتعطش وتسجن وتغترب وأنت الرب؟! فيقول الله: لقـد كان لـي في الدنيا عباد مسـتضعفون غربـاء، فعرفتموهم وأطعمتموهـم وسـقيتموهم، فكأنكـم أطعمتموني وسـقيتموني، وعندمـا آويتموهـم وأعتقتموهم فكأنكم آويتمونـي وأعتقتموني، ثم يلتفت الرب إلى أهل الشـمال فيقول: اليوم سـأعذبكم جميعًا،

(٢٨) إنجيل متى، الإصحاح، ١٣/٢٤-٤٣.

لأنني جعت فلم تطعموني، وعطشت فلم تسقوني، واغتربت فلم تؤوني، وسُجِنتُ فلم تعتقوني، فقالوا: يا ربنا، وكيف تجوع وتعطش وتغترب وتسجن وأنت الرب العظيم؟ فقال الملك: ألا تعلمون حقًّا، لو أنكم أطعمتم عبادي الجائعين، وسقيتم عبادي العطشى، وآويتم عبادي الغرباء، وأعتقتم عبادي المساجين فكأنكم فعلتم ذلك معي"[٢٩].

ولو تصفحنا الإنجيل فسنجد عبارات تتطابق مع آيات القرآن الكريم في حديثها عن القيامة ومشاهد يوم الحساب، ولكن القول الفصل في هذا الباب هو للقرآن المجيد الذي حفظه الله من كل تحريف أو تزييف، وقد تطرقنا في فصل سابق إلى منهج القرآن العظيم في إثبات البعث بعد الموت بصورة موجزة مركزة.

(٢٩) **إنجيل متى**، الإصحاح، ٢٥/٣٢-٤٦.

البعث روحا وجسدا

إن المحشـر هو المكان الذي يبعث فيه الناس جميعًا روحًا وجسـدًا، والقرآن الكريم يؤكد على هذه الحقيقة وهو يتحدث عن البعث في سياقات مختلفة وفي مشـاهد عديدة، وبالتالي يؤكد على الروح في السياقات التي تكـون فيهـا الروح هي الأهم، بينما يركز على الجسـد في السـياقات التي يكون فيها الجسد هو الأهم:

﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۞ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ۞ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ۞ وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ (سورة الفَجْرِ: ٨٩/٢٧-٣٠).

فهذه الآيات تسـلط الضوء على عودة الروح إلى الله تعالى بالأخص، ولكـن فـي معرض الحديث عـن البعث العام يتم الحديـث عن الكائنات ذات الكثافـة المادية مثل الأشـجار ومظاهر الربيـع، ويتم التنبيه إلى بعث الأجساد والأرواح معًا.

هنا لن ندخل في نقاشـات كلامية، ولن نسرد أدلة مجموعتين اختلفتا فـي تأويل الموضوع فذهبتا في اتجاهيـن مختلفين، ولكن نقول باختصار شـديد: إن جمهور علماء المسـلمين ذهبوا إلى أن البعث هو بعث الروح والجسـد معًا، بينما ذهب قلةٌ إلى القول بأن البعث هو بعث للروح فقط، ولـن ندخـل هنـا فـي تفاصيل مـا إذا كان البعـث هو بعث ذرات الجسـد

برمتها، أم بعث الذرات الأصلية التي تشكل جوهر الإنسان، فقد ذهب في تأويل ذلك كل من الإمام الغزالي والإمام فخر الدين الرازي مذاهب شتى، أما نحن فإننا نؤمن بحقيقة البعث والنشور كما جاء ذكرها في كتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ ونُحيل ما لا يدخل في إطار استيعابنا إلى علم العليم الخبير.

إن الجنة والنار نتيجتان مهمتان، وإن أسماء الله وصفاته يقتضيان وجودهما بالضرورة، والجنة رحمة في نظر المؤمن كما أن النار رحمة، ويؤكد هذا المعنى ما جاء في سورة الرحمن حيث يقول تعالى:

﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ ۞ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (سورة الرَّحْمَنِ: ٣٥/٥٥-٣٦)، أي يرسل عليكما نيران مرعبة يستحيل عليكم تقدير هولها، فالقرآن الكريم بعد التحذير من تلك النيران المروعة، يخاطب الإنس والجن بعبارة ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، فأي نعمة تلك التي قُصدت هنا؟

أجل، إذا كانت جهنم بهولها ذاك، تثير الخوف في قلب الإنسان، فتحركه لكي ينظم حياته وفق مرضاة الله تعالى، فإنها نعمة له حقًّا.

إن الجنة محفِّزٌ مهمٌّ لِأَهْلِ الهمّةِ من النفوسِ الطيّبة المرهَفة لكي تنطَلِقَ نحو القمم العالية، وكذلك النار ضابط حيوي ومنظم أساس للنفوس الخام التي لم تبلغ مستوى النضج بعد، حيث تبعث الخوف في قلوبهم فتؤدي بهم إلى أن يراقبوا أنفسهم ويحاسبوها ويقيموها على الصراط السوي. أجل، إن مَثل جهنم كمثل نار أوقدت في طريق محفوف

بالمخاطر، وإنها تجنّب الإنسان من أن يسلك ذلك الطريق، أما الجنة فمثلها كمثل مائدة شهية أقيمت على طريق مستقيم، فتأتي الجنة تدعو الإنسان لكي يسلك ذلك الطريق، وهكذا نرى أن جهنم نعمة، والجنة نعمة لأولي الألباب الذين يبتغون حسن العاقبة ويخشون سوء العذاب.

إن القرآن المجيد قد بيّن حقيقة الجنة والنار في أكثر من مائة وعشر آيات، إنْ بالتفصيل أو بالإجمال، وفي هذا البيان الذي يصور فيه مشاهد النار والجنة، يؤكد على معية الروح والجسد أثناء البعث بعد الموت، فمن دخل الجنة فإن البشاشة تعلو وجهه، وذلك في إشارة إلى سكينة الروح واطمئنان النفس، كما أنه يلقى ما لذّ وطاب من الأطعمة والأشربة حاضرًا، وترافقه زوجته وترفرف الحور العين من حوله، وهذه بطبيعة الحال نِعَمٌ متّصلة بجسد الإنسان.

وفي المقابل فإن مشاعر الندم التي يحس بها أهل النار، وآلامَ الحسرة التي تدمي ضمائرهم، هي كلُّها روحية لا شك في ذلك؛ ولكن دخولهم النار وتبديل جلودهم المحترقة بجلود غيرها، وشهود أعضائهم على أفعالهم السيئة.. هذه كلها ألوان من العذاب الجسدي.

ولقد أردنا من خلال تطرقنا إلى الجنة والنار في هذا المبحث التنبيه إلى معية الروح والجسد في البعث بعد الموت، وذلك ما أكدته الآيات القرآنية في أماكن شتى؛ وإلا فإن الموضوع واسع طويل يحتاج إلى بحث معمَّقٍ مستقلّ.

وبالله

مصادر

أبو داود، سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (ت: ٢٧٥هـ)؛ **سنن أبي داود**؛ (موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة-٣)؛ دار السلام، الرياض.

ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت: ٥٩٧هـ)؛ **صيد الخاطر**؛ دار القلم، دمشق، ط ١، (١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م).

ابن هشام، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين (ت: ٢١٣هـ)؛ **السيرة النبوية**؛ تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي؛ شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي، ١-٢، ط ٢، (١٣٧٥هـ/١٩٥٥م).

ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبَدَ التميمي أبو حاتم الدارمي البُستي (ت: ٣٥٤هـ)؛ **صحيح ابن حبان**؛ تحقيق: شعيب الأرنؤوط؛ مؤسسة الرسالة، بيروت، ١-١٨، ط ١، (١٤٠٨هـ/١٩٨٨م).

أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني؛ **مسند الإمام أحمد بن حنبل**؛ مؤسسة قرطبة، القاهرة، ١-٦.

الإمام مالك، مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني (ت: ١٧٩هـ)؛ **الموطأ**؛ تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي؛ مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية والإنسانية، أبو ظبي، الإمارات، ١-٨، ط ١، (١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م).

الأصبهاني، إسماعيل بن محمد بن الفضل بن علي القرشي الطليحي التيمي الأصبهاني، أبو القاسم، الملقب بقوام السنة (ت: ٥٣٥هـ)؛ **الترغيب والترهيب لقوام السنة**؛ تحقيق: أيمن بن صالح بن شعبان؛ دار الحديث، القاهرة، ١-٣، ط ١، (١٤١٤هـ/١٩٩٣م).

البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (ت: ٤٥٨هـ)؛ **شعب الإيمان**؛ تحقيق: الدوكتور عبد العلي عبد الحميد حامد؛ مكتبة الرشد، الرياض، ١-١٤، ط ١، (١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م).

البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي (ت: ٢٥٦هـ/٨٧٠م)؛ **صحيح البخاري** (موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة-١)؛ دار السلام، الرياض.

الحاكم، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري (ت: ٤٠٥هـ)؛ **المستدرك على الصحيحين**؛ تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا؛ دار الكتب العلمية، بيروت، ١-٤، ط ١، (١٤١١هـ/١٩٩٠م).

الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم (ت: ٣٦٠هـ)؛ **المعجم الأوسط**؛ تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني؛ دار الحرمين، القاهرة.

مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (ت: ٢٦١هـ)؛ **صحيح مسلم** (موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة-٢)؛ دار السلام، الرياض.

معمر بن راشد، معمر بن أبي عمرو راشد الأزدي مولاهم (ت: ١٥٣هـ)؛ **الجامع**؛ تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي؛ المجلس العلمي بباكستان، وتوزيع المكتب الإسلامي ببيروت، ١-٢، ط ٢، (١٤٠٣هـ).

النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (ت : ٣٠٣هـ)؛ **سنن النسائي** (موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة-٥)؛ دار المعرفة، بيروت، ١-٨، (١٩٩٢م).

عبد الله بن المبارك، أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي، التركي ثم المرْوزي (ت: ١٨١هـ)؛ **الزهد والرقائق لابن المبارك**؛ تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي؛ دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ.

الفاكهي، أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن العباس المكي الفاكهي (ت: ٢٧٢هـ)؛ **أخبار مكة**؛ تحقيق: د. عبد الملك عبد الله دهيش؛ دار خضر، بيروت، ١-٦، ط ٢، (١٤١٤هـ).

فخر الدين الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي (ت: ٦٠٦هـ)؛ **مفاتيح الغيب**؛ دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١-٣٢، ط ٣، (١٤٢٠هـ).

الترمذي، محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي (ت: ٢٧٩هـ)؛ **سنن الترمذي**؛ تحقيق: أحمد محمد شاكر؛ دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١-٥.